سورة الرعد

مكية، وهيَ معَ البسملةِ أربعٌ وأربعونَ آيةً وستةُ ركوعَات

سورة الرعد مكية كلها، عند الحسن وعكرمة وابن جبير (ابن كثير). وأما عطاء فاعتبرها مكية ما عدا قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً﴾. والبعض الآخر يستثنون قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا....وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إلا فِي ضَلالٍ﴾. وقد استثنى قتادة قوله تعالى﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ..﴾. وعن علي أيضًا أنها مكية.

ولكنها مدنية عند الكلبي ومقاتل وابن عباس والقاضي منذر بن سعد. وقال ابن عباس بأنها مدنية ما عدا قول الله ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ...إِنَّ اللّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (البحر المحيط).

فالباحثون عامة يعتبرونها مكية، ويبدو أن البعض اعتبرها مدنية لوجود آيات فيها نزلت بالمدينة. واعلم أنه لا يوجد ضمن هذه الآراء أي قول لأي من أكابر الصحابة إلا علي الذي يراها مكية. فثبت أنها مكية كما تشير إلى ذلك مواضيع السورة نفسها. مع العلم أن شهادة ابن عباس لا ترقى إلى مستوى شهادة علي رضوان الله عليهم، لأن ابن عباس كان طفلاً في حياة النبي ﷺ.

الترابط: وعلاقة سورة الرعد بالسور التي قبلها هي أن الله تعالى قد بيّن في سورة يونس أنه يهدي الناس بطريقين: العقاب والرحمة. وركّز في سورة الرعد على بيان موضوع العقاب. ثم في سورة يوسف ألقى القرآن الضوء على موضوع الرحمة. أما في هذه السورة فقد بين كيف سيحقق للنبي ﷺ الرقي الذي نبأ به في السور الثلاث

الماضية، وما هي التدابير التي سيتخذها الله تعالى لجعل دينه غالبًا على الأمم الأخرى بما فيها قومه ﷺ .

ملخص محتواها: إن الله تعالى يتخذ تدابير غير مرئية لإنجاز ما يريد لا يفطن لها الإنسان إلا عند ظهور نتائجها. ترون أن الأرض واحدة والماء واحد -فيما يبدو- ولكن الله يأتي بثمار مختلفة الألوان والأذواق باتخاذ تدابير غير مرئية. فلا تتعجبوا من نجاح هذا الرسول قائلين: كيف يمكن أن ينجح هذا الشخص وهو عديم الوسائل لتحقيق ما يقصده؟ ولا تستغربوا من بعثته، بل الحق أنه لو لم يبعث بما جاءكم به لكان أدعى للعجب والاستغراب.

ثم بيّن الطريق التي تَتِمُّ بها غلبة النبي وهلاك الكفار، حيث أخبر أنه تعالى سينزع حمايته عن علية القوم وكبرائهم، وسيُذهب ريحهم وسيُدْخل أولادهم في الإسلام. ذلك أن النواميس الطبيعية تابعة لله تعالى، وسوف يسخّرها في تأييد رسوله الكريم ﷺ، أما آلهتهم التي يعبدونها فهي لا تملك أي سلطة ولا قوة في الحقيقة لذا لن تنصرهم شيئًا. لقد زود الله تعالى هذا النبي بالقوى الروحانية التي يستطيع بها التغلب عليهم رغم كونه وحيدًا فريدًا؛ شأن الرجل البصير الذي يتغلب على مائة ضرير.

إن تعاليمهم الوثنية لا تقوى على الصمود أمام تعليم التوحيد الذي أتى به نبينا. وكما أن الأحمق ينخدع بالزَبَد المتكون على مياه الفيضان أو الذي يطفو على الذهب والفضة عند غليانهما، فيظن خطأً أن الزبد هو كل شيء، ولا يهتم بما تحته من ماء أو ذهب، كذلك لا ينظر أعداء النبي ﷺ إلا إلى الزبد، فرحين به، غير مكترثين بحقيقة ما تحته، مع أن الزبد ذاهب ضائع لا محالة، ولا يبقى إلا الماء أو الذهب. كذلك لن تبقى عقائدهم السطحية الفاسدة إلى أمد طويل، وإنما سيكتب الخلود لما أتى به نبينا من تعليم حقيقي مفيد نافع، لأن تعليمه يتلاءم مع الفطرة الإنسانية، وسوف تقبله الطبائع تدريجيًا عندما تجد فيه انسجامًا وتلاؤمًا، وعندما ترى الفارق الشاسع بين العاملين بتعليمه وبين الرافضين له.

كما قد أخبر تعالى في هذه السورة أنه سوف يُري العالم معجزات عظيمة بواسطة القرآن الكريم ويغزو بها القلوب. وستكون هذه الآيات ظاهرة وباطنة أيضًا. ومن الآيات الظاهرة أن أهل مكة سوف يطردون محمدًا من وطنه، فيتفاقم الأمر حتى يُشهروا السيوف ضده، فتقع في البداية اشتباكات صغيرة، لتتم لمحمد الغلبة تدريجيًا، وسوف تنتهي هذه الحروب بفتح مكة على يده في آخر المطاف. وجميع هذه المعجزات ستتم بحول الله وقدرته ﷻ وليس بقوة محمد رسول الله ﷺ. سوف يظهر الله تعالى صدق نبيه ويقيم دينه الحق بهجمات قوية، ومن أجل ذلك سُميت السورة بالرعد، وكأن هذه التسمية إشارة إلى أن السحاب الروحاني المثقل بالأمطار كان في انتظار هذا الرعد فقط، لكي يهطل غزيرًا على الأرض الجدباء.

لقد طعن القسيس "ويري" في هذه السورة قائلاً: إنها مليئة باعتذارات متكررة من محمد على عدم قدرته على إظهار المعجزات، فكان الأجدر أن تسمى سورة (المعاذير) بدلاً من (الرعد). (تفسير ويري).

وأقول ردًّا على قوله: إنه قول باطل لأن السورة تحتوي على شتى الأنباء الإنذارية، بحيث كانت تسميتها بالرعد أمرًا منطقيًا وطبيعيًا للغاية.

في سورة يونس جاء في وصف "الكتاب" بأنه "الحكيم"، وفي سورة هود قال إنه قد "فصِّلت آياته"، وفي سورة يوسف وصفه بأنه "مبين"، وأما هنا في سورة الرعد فقد ذكر مجرد "الكتاب" دون ذكر أية صفة له. ذلك أنه تعالى قد جمع في سورة يونس بين الإنذار والتبشير، مبينًا أن "الحكيم" يعامل الناس بما يتلاءم مع الموقف. أما في سورة هود فقد ركّز الله على بيان سنته في العقاب ولذلك وصف الكتاب بأنه "فُصّلتْ آياته"، لأن التفصيل يشير إلى الفصل والتشتيت والتشريد. وأما في سورة يوسف فقد ركّز سبحانه فيها على أمرين: الأول: بيان الحكمة لتأخر غلبة الأنبياء، والثاني: التركيز على موضوع العفو والصلح، ولذلك وصف الكتاب بكلمة "مبين" التي تشير إلى موضوع بيان الأسباب والأعذار. أما سورة الرعد فإنها تبحث في

الوسائل التي سوف تُتخذ لتحقيق الهدف، ولذلك ذكر فيها الكتاب دون أي وصف، وقد ذكر الكتاب هنا معرفًا بـــ"**ال**" إما ليبيّن أنه الكتاب الكامل، أو فيه إشارة إلى السور الثلاث الماضية بأن الصفات المذكورة فيها سوف تنكشف في هذه السورة الآن بصورة كاملة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

تلك آيات الكتاب: (راجع الآية رقم٢ من سورة يونس).

رَبّ: (راجع الآية رقم٤ من سورة يونس).

التفسير: قوله تعالى ﴿المر﴾: لقد استهلت السور الثلاث السابقة بمقطع ﴿الر﴾، وأما هذه فابتدأت بمقطع ﴿المر﴾ أي بزيادة "ميم" على المقطع السابق، وفي ذلك إشارة إلى أن موضوع هذه السورة يختلف بعض الشيء عن موضوع السور السالفة. وقد سبق أن ذكرنا في مستهل سورة يونس عند تفسير المقطعات القرآنية أن ﴿م﴾ تنوب عن (أعلم)، فالمراد من ﴿المر﴾ أنا الله أعلم وأرى، وكأن إضافة "م" إلى "ر" إشارة إلى أن موضوع هذه السورة يدور حول العلم والرؤية الإلهيين.

واعلم أن الرؤية بالنسبة للإنسان تعني إدراكه بواسطة حاسة النظر لونَ الشيء وطولَه وعرضَه. أما العلم فهو أوسع معنىً من الرؤية، فإنه يعني معرفته بما يمكن إدراكه بالعين وغيرها من الحواس من شم أو سمع أو لمس.

وهنا ينشأ سؤال: ما هو المراد إذن من رؤية الله وعلمه؟ الجواب: إن الله يعلم كل

شيء دونما حاجة إلى العين أو غيرها من الحواس البشرية، وسواء عنده ما يُدرَك بالعين أو بالحواس الأخرى. وإنما ترد هذه الكلمات في حق الله على سبيل المجاز، تقريبًا للمعنى ودلالةً على البون الشاسع بين الله وبين الإنسان فيما يتعلق بهذه القدرات. والمراد أن الله تعالى أكثر إدراكًا من الإنسان لما يراه الإنسان بالبصر، وأعلم منه أيضًا بما يدركه الإنسان بالحواس الأخرى سواء كانت هذه المدركات حسية أو باطنية.

أما قوله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ فمعناه: أن ما نزل في هذه السورة أو في القرآن من آيات هو من ضمن الكتاب الموعود الذي لم تزل تنتظره عقول العالم كله، أو أنها جزء من ذلك الكتاب الكامل الذي قد سبق التنبؤ عنه منذ زمن سابق. وما دام الأمر هكذا فلن تستطيعوا معارضته ومقاومته. وهل يعقل أن يهمل الله اليوم ما أنبأ به على لسان أنبيائه على مرّ العصور، أو هل يمكن أن تصمد ادعاءاتهم إزاء كمالات هذا الكتاب ومحاسنه.

ويعني قوله تعالى ﴿وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي أن ما ينبئ به هذا الكتاب لواقعٌ لا محالة، ولن تقدر قوة على الحيلولة دون وقوعه.

وتعني الآية ككل، أن الإنسان يصبو دائمًا إلى المعرفة الصحيحة، ولكن المؤسف هو أن هؤلاء القوم عندما جاءهم الكتاب الذي يسمو عن كل شك وشبهة، أعرضوا عنه، مؤثرين الشكوك على اليقين.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

عَمَد: العِماد: ما يُسنَدُ به، جمعهُ عُمُدٌ وعَمَدٌ. والعمادُ: الأبنية الرفيعة (الأقرب).

سخَّرَ: سخَّره: كلّفهُ عملاً بلا أُجرة؛ ذَلَّله. وكل مقهور لا يَملك لنفسه ما يخلّصه من القهر فذلك مسخَّرٌ (الأقرب).

يرفع: (راجع الآية ١٠١ من سورة يوسف)

السماوات واستوى والعرش ويدبر:(راجع الآية ٤ من يونس)

الأجل: (راجع الآية ١٢من سورة يونس)

يفصّل: (راجع الآية ٣٨ من سورة يونس)

التفسير: يمكن تفسير الآية بمفهومين: أن الله رفع السماوات بغير عمد كما ترون، أو أنه تعالى رفعها بدون أعمدة تستطيعون رؤيتها، أي أنها مرفوعة بأعمدة ولكنكم لا تستطيعون رؤية هذه الأعمدة. وكلا المعنيين صحيحان، ذلك أننا لو أخذنا كلمة العمود بالعُرف العام أي ما تُرفع عليه الأشياء الأخرى، فلا نجد هناك مثل هذه الأعمدة المادية للسماوات، وأما لو أخذنا العمود بالمعنى المجازي بدليل أن ما ترتكز عليه الأشياء الأخرى هو عمودها مجازًا، فنجد الأجرام السماوية قائمة على أعمدة غير مرئية وملموسة مثل قوة الجاذبية أو الحركات المحددة للأجرام وغيرها من الأسباب الأخرى مما اكتشفها علماء الطبيعة أو لم يكتشفوها بعد.

والآية تبطل زعمًا من مزاعم الكفار، إذ كانوا يقولون كيف ينجح محمد في مَرامه وهو لا يملك من أسباب الغلبة والانتصار شيئًا. ولقد سبق أن دحض الله هذه الشبهة في الآية السالفة عندما وصف القرآن بكونه حقًا أي ما يتحقق ويتوطد حتمًا، والآن ساق على بطلانها دليلاً آخر فقال: لا شك أن الأشياء تقوم على ركائز ملائمة، لكن ليس ضروريًا أن تكون هذه الركائز كلها من نوع واحد.

لا شك أن الإنسان لا يستطيع ولا يقدر على رفع شيء إلا بأعمدة مادية حتى إن السقف البسيط لا يرتفع بدون جدران أو أعمدة، ولكن الله بديع في خلقه، فانظروا

كيف رفع هذه الأجرام السماوية الهائلة الثقل والضخامة بدون ما يمكن تسميته عمودًا بالمعنى المتعارف عليه، أو بدون أعمدة مرئية، ومع ذلك فإن الأجرام لا تزال قائمة ثابتة في أماكنها المحددة دون أن يحدث في نظامها خلل أو فتور رغم مرور أزمان سحيقة عليها. فثبت أن هناك بونًا شاسعًا بين ما يفعله الإنسان وبين ما يفعله الله. فيجب أن تساعدكم هذه الأمور الظاهرة على قياس الأمور الروحانية.

لا جرم أن الإنسان بحاجة إلى الأسباب المادية إذا أراد الغلبة على أحد، ولكن الله تعالى إذا أراد أن يجعل نبيه غالبًا على أعدائه فلا حاجة له إلى أسباب مادية مرئية، بل يحقق الغلبة بتدابير دقيقة وأسباب غير مرئية. ولكن الناس لا يصدقون هذه الحقيقة إلا بعد ظهور النتائج، وأما قبلها فلا ينفكون يعتبرون انتصار نبي الله ضربًا من المستحيل.

إن الأسباب التي يرى الكفار ضرورة توفُّرها لدى النبي ﷺ ضمانًا لنجاحه، مذكورة في سورة الإسراء كالتالي:

١) أن يكون عنده ينابيع الماء ليستقي منها الناس والأنعام.

٢) أن تكون عنده ضيعات فيها حدائق وبساتين وأن يحفر خلالها أنهارا لعمرانها.

٣) أن يُهلك أعداءه في لمح البصر.

٤) أن يأتي الله والملائكة لنصرته على الأعداء.

٥) أن يملك ثروات هائلة.

٦) أن يملك قوة خارقة حتى يرتقي إلى السماء أمام القوم، ويترل منها بكتاب مسطور يلمسونه بأيديهم ويقرءونه، أي عليه أن لا يدّعي فقط بأن الله قد أمره بهذا شفويًا، بل يجب أن يأتي برسالة مكتوبة منه يقرأها القوم. (الآيات٨٩ إلى٩٤).

يتضح مما سلف أن هذه الأسباب التي يطالبون بتوفّرها عند الرسول ﷺ هي من نوعين: أسباب مادية كالأرض والأموال والثروات والمياه وسلطة الجزاء والعقاب؛ وأسباب روحانية أي أمور خارقة للنواميس الطبيعية كظهور الله والملائكة لنصرته، وصعوده إلى السماء ليترل منها بكتاب مسطور. وكانوا يجدون النبي ﷺ محرومًا من

هذه القوى والأسباب بنوعيها. فكانوا يظنون أنه ليس بحوزته ما يملكه الملوك، كما ليس عنده ما يجب توفّره عند النبي، ولذلك كانوا يعتقدون أن هذا يحاول رفع البناء بدون عمد وسند فلن ينجح في هدفه.

ورُبَّ سائل يسأل: لم يكن في دعوى النبي ما يثير عجبهم، فقد كان التاريخ ولا يزال يقدم لنا أمثلة كثيرة لأناس خاملي الذكر محرومين من الوسائل المؤدية إلى سُدّة الحكم، ولكنهم صاروا ملوكًا وحكامًا. خذوا مثلاً: الملك الأفغاني "نادر شاه" والحاكم الفرنسي "نابليون بونابارت" في التاريخ الحديث.

والجواب: لا شك في وجود هذه الأمثلة في العالم من حين لآخر، ولكن الحقيقة أن هؤلاء كانوا يملكون القدرات والوسائل منذ البداية، ولكن الناس لم يأبهوا بهم في بداية أمرهم، وعندما وصل هؤلاء إلى سُدّة الحكم تنبهوا وتعجبوا منهم ومن قدراتهم.

وعلاوة على ذلك، فهناك فارق بيِّن بينهم وبين النبي ﷺ. فهؤلاء إنما أعلنوا عن ملكهم وغلبتهم بعد أن وصلوا إلى الحكم، دون أن يعلنوا في بداية أمرهم بأنهم سيصبحون ملوكًا، بل حتى لم يفكروا في ذلك، فلم يكن هناك عندئذٍ داعٍ يثير استغراب القوم منهم. ولكننا نجد رسول الله ﷺ يعلن عن انتصاره سلفًا وقبل أوانه، وكان هذا شيئًا عجيبًا ومحيرًا للعرب.

وهناك فارق آخر أكبر وهو أن الذين يصبحون ملوكًا بعد أن كانوا خاملي الذكر يلجئون إلى اتخاذ تدابير ملائمة للوصول إلى سُدّة الملك. فمثلاً عندما أراد "نادر شاه" الأفغاني انتزاع الملك من الحاكم، جمع حوله بعض الجنود في البداية، ثم بدأ في قطع الطرق، ثم هزم أمراء المناطق المجاورة له، ثم الأمراءَ الكبار، حتى انتزع الحكم من الملك نفسه. وهذا ما فعله "نابليون بونابارت"، فإنه حينما رأى حركة أو ثورة خفيفة وصل إليها بسرعة البرق، واستغلها لصالحه، وهكذا زرع الرعب في قلوب رجال الحكومة، وكسب ولاء الجنود له ضدها.

هذا هو القاسم المشترك الذي نجده في حياة جميع أولئك الذين وصلوا إلى الحكم

بعد الخمول، سواء جاءوا قبل النبي ﷺ أو بعده، ولذلك نجد أهل مكة عندما سمعوا دعوى النبي بالانتصار والغلبة، شرعوا يتساءلون: ما هي الأسباب التي يتخذها لكسب الغلبة؟ كل ما رأوه منه هو أنه ﷺ كان يحوّل بصحبته الصالحة الأجلافَ القساةَ القلوب أناسًا طيبين ذوي قلوب رحيمة وطبائع مسكينة، وبدلاً من أن يعلّم أتباعه بثّ الرعب في قلوب الأعداء بالعدوان عليهم، كان يأمرهم بتحمل أذى المعتدي في صبر وصمت وبالعفو عنه ابتغاء وجه الله. وصاحب مثل هذا التعليم لا يمكن أن يصل إلى الحكم -في رأيهم- بل يسد في وجهه أي باب يمكن أن يؤدي إلى سدة الحكم.

وكان الله العليم بذات الصدور مطلعًا على ما يدور بخَلَدهم من مثل هذه الأفكار والتساؤلات التي كانوا لا يتفوهون بها علنًا. فردّ الله عليهم قائلاً: إن نبينا هذا لا يدّعي برفع بناء مادي وإنما يُعلن عن رفع سماء روحانية. ثم اعلموا أن المباني المادية التي ترفعونها بالأعمدة تنهدم في آخر الأمر، ولكن السماء المرفوعة بدون عمد قائمةٌ كما هي منذ ملايين السنين. هكذا سيتمّ أمر محمد، فقد جعلنا لقيام أمره أسبابًا خافية عن أنظاركم كأعمدة السماء؛ بعضُها يكمن في التعليم الذي جاء به، وبعضها يتمثل في عصمة الله له. فأمره أسمى من أن يعتمد على الأسباب المادية الظاهرة، بل هو قائم على ما هو خارج عن نطاق قدرة البشر، أي على الأسباب السماوية. ولا غرابة في أمره، لأن ما ضربناه من مثال للأجرام الفلكية يشكل برهانًا على أن الصفات الإلهية إنما تتجلى على هذا المنوال، هكذا ينصر الله أنبياءه بأسباب غير مرئية.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني أن الله كما رفع الأجرام السماوية في العالم المادي أولاً، ثم بدأ يتجلى بصفاته بشكل كامل، كذلك سيفعل الآن في العالم الروحاني، وسيكمل بواسطة نبيه محمد ﷺ السماء الروحانية لكي تتجلى على الناس صفاته تجليًا ظاهرًا ويعطي الإنسانية هديًا كاملاً. مع العلم أن العرش مصطلح قرآني يعني به تكميل النواميس الطبيعية والروحانية، وقد استُعير هذا المصطلح من العالم المادي، حيث إن الملوك عندما يريدون الإعلان عن قرار هام يعلنونه من على العرش.

ونظرًا إلى هذه العادة الشائعة فقد استخدم القرآن كلمة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بمعنى التجلي الكامل لصفات الله تعالى.

أما السؤال عن ماهية العرش فجوابه مبدئيًا ما ذكره الإمام الراغب لدى شرح هذه الكلمة في مفرداته، حيث قال: "وعرشُ الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة. فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى لا محمولاً، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾." (المفردات).

الواقع أن العرش لغةً تعني: السقف، سواء كان عريشًا أو مظلةً يُستظل بها، أو سريرًا مرفوعًا من فوق الأرض بقوائم يُجلس عليه. كما يُكنى بالعرش عن الكرامة والمُلك والغلبة وقوام الأمر (التاج). وهذه المعاني أيضًا مستقاة من السقف، لأنه كان عادة كبار القوم في القديم أن يجلسوا تحت المظلات أو العرائش أو على السُرر المرفوعة.

وقد وردت كلمة "العرش" بمعنى السقف في القرآن في قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (البقرة:٢٦٠). أي كانت سقوف البيوت قد تهدّمت فسقطت عليها الجدران. كما وردت بمعنى سرير الملك في قوله تعالى ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (يوسف:١٠١). وقد ورد أيضًا بهذا المعنى أربع مرات في سورة النمل عند الحديث عن ملكة سبأ.

كما وردت الكلمة بمعناها الخاص بـــ "العرش الإلهي" ٢١ مرةً في القرآن الكريم.(راجع لمزيد من التفصيل تفسير الآية رقم ٤ من سورة يونس).

وذكر صاحب روح المعاني قول البعض -بدون ذكر الاسم- بأن قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إنما هو استعارة للحكم والتدبير، بدليل قوله تعالى في سورة يونس ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾. فهو يرى أن قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ تفسير لقوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وقد نقل بعض المفسرين الجدد هذا المعنى عن الأسلاف، ولكنه معنى خاطئ، لأنه قد ذُكر "العرش" في القرآن الكريم والحديث الشريف بكثرة وتواتر بحيث يستحيل أن نظن أن العرش لا يعني إلا الاستعارة عن " الحكم والتدبير" فقط لا غير.

فلنرجع مرة أخرى إلى قوله تعالى في سورة يونس ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ لنجد أن قوله ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يمكن اعتباره حالاً لقوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بمعنى أن الله استوى على العرش مدبرًا نظام الكون كله، أو يمكن أن نعتبره خبرًا ثانيًا لقوله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ...﴾ بمعنى أن ربكم الله الذي خلق الكون واستوى على العرش يدبر الكون. أما هنا في سورة الرعد فنجد فاصلاً كبيرًا بين قوله تعالى ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وبين قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ فلا يمكن اعتبار قوله (يُدَبِّرُ الأَمْرَ) تفسيرًا للاستواء على العرش.

وباختصار، فليس المراد من قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أن العرش ماديّ أو أنه لا وجود له، أو أنه استعارة عن الحكم والتدبير فقط. كلا، بل العرش اسمٌ للنظام المركزي التابع لصفات الله التنـــزيهية التي تكون الصفات التشبيهية بمثابة حاملٍ لها أو كأعمدة لها بتعبير آخر.

وقد ذكر سبحانه وتعالى استواءه على العرش بعد الحديث عن رفع السماوات ليشير إلى أنه ﷻ حينما يخلق سماءً وأرضًا روحانيتين جديدتين تتجلى صفاته تجليا كاملاً، فلا يتجلى بصفة واحدة بل يسخّر كل صفة من صفاته التشبيهية التابعة لنظام الصفات التنزيهية المركزي، وكأنه تعالى يُنزل حينئذ بركاته الخاصة من مركز صفاته التنـــزيهية لكي تظهر جميع الصفات التشبيهية التابعة ظهورًا كاملاً، شأن الملك الذي يصدر أوامره الهامة جالسًا على عرشه.

لقد أشار الله ﷻ بقوله هذا إلى أنه لا يسخّر لتأييد رسوله صفة واحدة فحسب، بل يسخّر جميع صفاته التشبيهية.. أي التي يتجلى بها على العباد.

ثم قال انظروا كيف أن الله تعالى -إلى جانب رفعه السماواتِ والأرضَ- سخّر الشمس والقمر لخدمتكم دونما أجر. إن أُجراءكم الذين تستعينون بهم نظير أجر قد يشتكون منكم ويترددون في خدمتكم، ولكن هذه الأجرام لا تزال منذ عصور سحيقة تقدم لكم خدماتها دون أن تروا أي عامل من الخوف أو الرجاء يضبط هذه الأجرام، اللهم إلا القانون الإلهي. فما الغرابة في أن يسخر الله نفس هذا القانون من أجل نصرة رسوله محمد ﷺ ليسخّر كل شيء لتأييده.

أما قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فيعني أنكم كما تجدون للكون نظامًا محكمًا عظيمًا يدار بدون أعمدة مرئية لكم، كذلك سوف يدبّر الله تعالى أمر رسوله محمد ﷺ. فيُرى آيات بينات لنصرته وسيصدر للكون كله الأوامر الصريحة لتأييد رسوله، فتعمل كل ذرة في الكون على نصرته، حتى تنالوا الإيمان اليقيني.

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

مدَّ: مدَّه: بَسَطَهُ. مَدَّ المديونَ: أمهلَه. مدَّ الله عمره: أطالهُ. ومدَّ الشيءَ: جذبه. ومدَّ القوم: صار لهم مددًا وأغاثهم بنفسه. وفي اللسان: مَدَدْتُ الأرض مدًّا، إذا زِدت فيها ترابًا أو سمادًا من غَيرها، فيكون أعمرَ لها وأكثرَ ريعًا لزرعها (الأقرب).

فالمراد من قوله تعالى﴿مَدَّ الأَرْضَ﴾:

١) أن الله هو الذي بسط الأرض ووسّعها.

٢) أن الله هو الذي زوّد قشرة الأرض بالتراب والسماد لتكون أكثر عمرانًا وثمارًا.

وهذا ثابت بالبحوث الحديثة التي تخبرنا أنه لا تزال تقع على الأرض ذرات دقيقة للغاية من الكواكب الأخرى مما يساعد الأرض على الإنبات.

٣) أن الله هو الذي أغاث أهلها بنعم لا تقدر ولا تحصى كيلا ينقرضوا.

رواسيَ: الرواسي: الجبالُ الثوابتُ الرواسخُ (الأقرب).

التفسير: لقد أشار الله تعالى بقوله﴿مَدَّ الأَرْضَ﴾ بعد قوله ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ إلى أن السماء والأرض تتعاملان وتتفاعلان. فكما أن تفاعلهما كزوجين يؤدي إلى الإنتاج، كذلك فإن جميع الأمور في العالم المادي إنما تتم بتفاعل قوي بين السماء والأرض. وهذا هو بالضبط حال العالم الروحاني، فهو أيضًا بحاجة إلى السماء أي إلى ماء الوحي الذي ينزل من السماء، وإلى الأرض أي الطبائع الجاهزة لقبول الماء السماوي. وكما أن الأرض الصالحة لا تلبث أن تخرج نباتها وثمارها بعد التفاعل مع ماء السماء، كذلك هو حال هذه الطبائع الجاهزة، فهي بمثابة الأرض إزاء السماء الروحانية، ولا تستطيع كتمان خزائنها بعد التفاعل مع ماء الوحي السماوي، بل لا تلبث أن تنجذب إلى نبي الله انجذاب قطعة الحديد إلى المغناطيس. فلا تتعجبوا من انتشار دعوة النبي محمد ﷺ، بل يجب أن تعجبوا إذا لم تنتشر، إذ كيف يمكن لأرض صالحة أن لا تُخرج نباتها رغم نزول المطر عليها.

ثم قال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾. أي لقد جعلنا في الأرض جبالاً لندّخر فيها الماء على شكل جليد، لتزود العالم بالماء دون انقطاع على شكل ينابيع وأنهار. ولو نفذت هذه الذخيرة الجليدية لجفّت العيون والأنهار، وأصبحت الأرض قاحلة جرداء.

وهذه هي حالة العالم الروحاني، فإن فيه أيضًا شخصيات عظامًا هي بمثابة الجبال إذ تَدَّخر كلام الله تعالى. وهناك شخصيات أخرى لا تدّخر كلام الله، ولكنها تنفع به

الآخرين. وفئة أخرى تكون كالأرض، فترى أهلها من المنتفعين فقط. أما الجبال فَهم الأنبياء، وأما الأنهار فهم العلماء، وأما الأرض فهم عامة الناس. ولولا هذه الرواسي الروحانية لجفّت الينابيع الروحانية وهلكت الدنيا.

ثم قال ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي جعل في الأرض من كل ثمرة زوجين الذكر والأنثى.

لقد ذكر هنا الثمار فقط، ولكنه قد أكد في أماكن أخرى من القرآن أنه تعالى قد جعل من كل شيء زوجين. وهذه حقيقة ينفرد القرآن بذكرها عن جميع الديانات. لقد عرف العرب قبل نزول القرآن أن أشجار النخل زوجان الذكر والأنثى، ولكنهم لم يعرفوا أكثر من هذا. وكانت عقول العالم حينئذ عاجزة عن فهم هذه الحقيقة القرآنية. ولكن بعد مرور ١٣ قرنًا على نزولها في القرآن أكدتها العلوم الحديثة اليوم، حيث توصل العلماء في بحوثهم إلى أن كل شيء حتى ذرات الجمادات زوجان الذكر والأنثى.

وقد ضرب الله هذا المثال ليبين أنه كما خلق كل شيء زوجين، كذلك جعل للعقل الإنساني زوجًا هو الوحي. فما لم يتزل عليه نور من وحي الله لن يتيسر له المعرفة الحقيقة التي هي نتاج تفاعل العقل والوحي. كما يؤكد بذلك أيضًا أنه إذا امتزج العقل السليم وماء الوحي السماوي فلا تستطيع قوة من القوى منعهما من إنتاج الثمار. وكما أنه كان من المستحيل أن تتيسر للناس معرفة الله حقًا بدون ما نزل على محمد ﷺ من وحي سماوي، كذلك من المحال أن تمتنع العقول السليمة عن قبول تعليمه إذا ما عُرض عليها عرضًا سليمًا صحيحًا.

وساق في قوله ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ دليلاً آخر على انتشار رسالة القرآن الكريم، فقال: لا يخدعنّ أحد بما يخيم حول محمد من ظلام حالك فيستبعد انتشار تعليمه. فكما أنكم تجدون الآن الظلمات السائدة في العالم الروحاني، كذلك تكون الحال في العالم المادي أيضًا، ولكن الله يأتي بالنهار من الليل المظلم نفسه. فلو كانت ظاهرة الظلمات الروحانية ظاهرة حرة أي خارجة عن نطاق النواميس الإلهية لتعذّر إزالتها،

ولكنها تابعة خاضعة لأمر الله تعالى، وتأتي وفق القوانين الإلهية وبقضاء إلهي. ألا ترون أن شعاعًا واحدًا من الشمس يهتك حجب السحاب الداكن الظلام. كذلك سيحدث الآن، إذ إنّ الله تعالى لا يملك السلطان على النور وحده بل على الظلام أيضًا، فلو شاء إزالة الظلمة فسوف تزول لا محالة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي أن الذين يُعملون الفكرَ يستطيعون الانتفاع من هذه الأمثلة، بل إنهم ينتفعون فعلاً، أما الذين يأبَون إلا أن يصبحوا حطب جهنم فليس لهم إلا الحرمان الأبدي دون ريب.

وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

قِطَعٌ: جمعُ قطعة، والقطعةُ: الحصةُ من الشيء (الأقرب).

مُتَجاوراتٌ: تجاور القومُ: جاورَ بعضهُم بعضًا (الأقرب).

صِنوانٌ: الصِنوُ: الأخُ الشقيقُ؛ الابنُ؛ العَمُّ. وإذا خرج نخلتان أو أكثر من أصل واحد فكل واحدة منهنّ صِنْوٌ وصُنْوٌ والاثنان صِنْوانِ وصِنْيان والجمعُ صِنوانٌ. وقيلَ الصِنوُ عامٌّ في كل فرعين يخرجان من أصل واحد في النخل وغيره (الأقرب).

الأُكُل: الثمرُ؛ الرزقُ الواسع (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: لا تقولوا: ما وجه تفضيل محمد علينا، فهو أحد أحفاد عبد المطلب! ألا ترون إلى الأرض كيف أن قطعها المتجاورة أيضًا تتفاوت في قدراتها

على الخصب والإنتاج، فما تُنبته هذه القطعة من زرع أو شجر أو ثمر لا تقدر القطعة المجاورة لها على إنباته. وما أكثر ما نجد هذه الظاهرة في بلاد "كشمير" حيث توجد حقول من الزعفران في قطع أرض معينة بينما لا تجده في الأراضي الأخرى لأنها لا تصلح لإنباته. ونفس المشهد يمكن أن تراه في منطقة "بارا" الواقعة في إقليم "سرحد" (بباكستان)، حيث تشتهر أراضيها بإنتاج نوع خاص من الأرز العالي الجودة، ولكن الأرز المزروع في الأراضي المجاورة لها ليس بنفس الجودة. وتلاحَظ الظاهرة نفسها في الحيوانات، فإن "غزال المسك" مثلاً إذا تُرك ليرعى في منطقة معينة أنتَجَ أجود أنواع المسك، أما إذا نُقل إلى منطقة غيرها فإما أن ينتج مسكًا رديئًا أو لا ينتجه أصلاً.

فالله تعالى يلفت أنظار الكفار إلى هذه الظاهرة ويقول: ما دمتم تجدون هذا التفاوت حتى في قطع الأرض، فلماذا تستبعدون وجوده في الناس؟ ولماذا لا يستطيع الواحد منهم أن يصبح إنسانًا ربانيًا سماويًا بينما يبقى الآخر شخصًا أرضيًا ماديا؟

وأشار القرآن بقوله تعالى ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ أن هذه الأشجار تتفاوت ثمارها لونًا وطعمًا مع أنها تُسقى بماء واحد، ولكن أمركم أيها الكفار مختلف. فإن محمدًا ﷺ يشرب مما يترل عليه من ماء الوحي السماوي، وأما أنتم فتشربون ما يقدمه لكم الشيطان من ماء كدر، لأنكم ترفضون سماع كلام السماء وتُصغون إلى وساوس الشيطان.

وقد يعني الله تعالى بقوله ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ أنه لا جرم أن محمدًا كان منكم وعاش في نفس المحيط والظروف التي عشتم فيها، ولكن لا تستغربوا فضلَه عليكم، ألا ترون أن الأشجار من نوع واحد تُسقى من ماء واحد ومع ذلك تختلف ثمارها طعمًا وجودة. فلا تنظروا فقط إلى توحُّد الظروف والأسباب، بل انظروا أيضًا إلى كيفية استغلال الإنسان لها. إن السيف إذا كان بيد الغِمر الجاهل فلا جدوى منه ولا فائدة، ولكنه حليفُ فتح وظفر إذا ما استله البطل المحنك المجرب. لقد كان أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما– أيضًا من أهل مكة ولم يكن لأيّ منهما شأن يذكر قبل الإسلام،

أما بعد اتخاذهما محمدًا ﷺ أبًا روحيًا لهما اشتهر كل منهما كأحد أعظم العظماء في العالم، حيث أشاد بإنجازاتهما الأعداء قبل الأصدقاء ولا يزالون .

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

الأغلالُ: "الغُلّ: طوقٌ من حديد أو قِدٍّ (أي جلد) يُجعل في العنق أو في اليد، ومنه قيل للمرأة السيئة الخُلق: غُلٌّ قَمِلٌ، وأصلهُ أن الغل كان يكون من قِدٍّ عليه شَعرٌ فيَقملُ في عنُق الأسير فيؤذيه، فيكون الغُلّ القَمِل أنكى. وجمعهُ أغلال وغلول. ويُقال: هذا غُلّ في عنقك" (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: لا تستغربوا إذا كتب الله النجاح لرسوله محمد ﷺ وأصلح الدنيا على يده، وإنما العجب أن لا يهتم الله بإصلاح الدنيا رغم فساد أهلها إلى هذه الدرجة، لأنه يتنافى مع النواميس الإلهية أن يخلق العين ولا يخلق النور الذي تبصر به وأن يخلق الأنثى ولا يخلق الذكرَ الذي يتسبب في ظهور قواها الكامنة. كما أنه مثير للغرابة أن يتزاوج الذكر والأنثى ولا ينجبا شيئًا. فلا تقولوا: كيف يمكن أن يتم إصلاح العالم على يد محمد ﷺ، وإنما العجب من تفكيركم الغبي أن تقولوا:كيف يمكن أن تنهض أمة بعد السقوط، وكيف نحيا بعد الممات! فإذا كان العون قد نزل من السماء وماء الحياة قد تيسّر فلا غرابة في ذلك أبدًا!

ووضح بقوله ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أن هذا اليأس المستولي على قلوبهم إنما

هو نتاج كفرهم ورفضهم.

الواقع أنه لا غرابة في قنوط هؤلاء الذين يتّبعون المبادئ الزائفة التي اخترعوها من عند أنفسهم، منحرفين عن الصراط الذي حدده الله لهم. وليس للقانط إلا الفشل في مراميه والاحتراق في جحيم حسراته.

ومن المؤسف أن هذه هي حالة المسلمين اليوم، لأنهم يريدون معالجة مشاكلهم بغير ما وصفه الله لها من علاج. فبدلاً من أن يهتموا بنشر الإسلام وإصلاح أخلاقهم والابتهال والإنابة إلى الله، والاستسلام لأمره، يريدون علاج مصائبهم في إتباع الغرب في ثقافته ونظامه الاقتصادي من بنوك وربا وتأمين للحياة وغيرها.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

المَثُلات: المَثُلةُ: العقوبةُ، يُقال: حلّت به المَثُلة. والمَثُلة: ما أصاب القرون الماضية من العذاب وهي عبرٌ يُعتبر بها (الأقرب).

التفسير: أي عندما يقال لهم أن يتحرروا من أغلال التقاليد الفارغة، وينهضوا للرقي والتقدم مستغلين ما وهبهم الله من قدرات ووسائل، وإلا فإنهم سيصبحون كالغصن الجاف الذي لا مصير له إلا النار، يقولون: حسنًا، ائتنا بالنار التي تهددنا بها. وكأنهم عندما يُدعَون إلى الخير يرفضون معرضين، وحينما يحذَّرون من العذاب يطالبون به مستعجلين، ولا يدركون أن العذاب يحل دائمًا عند بعثة الأنبياء، وهو قادم الآن لا محالة. فكان الأجدر بهم أن يسألوا الله فضله بإصلاح أنفسهم، بدلاً من أن

يطالبوا بالعذاب تعنتًا وعنادًا.

هذا هو بالضبط ما يحدث في زمن كل نبي، حيث لا يطلب أعداء النبي الأغبياء فضل الله ورحمته، ولا يقولون: اللهم إنْ كان هذا حقًا فارزقنا طاعته، بل يقولون: اللهم إن كان هذا حقًا فأمطِرْ علينا عذابًا من السماء.

وأما قوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ فبيّن فيه حكمة عظيمة حيث قال: إننا لا نهدف من بعث الأنبياء لأن نهلك الناس وإنما لننقذهم. ألا ترون أن أهل الدنيا يرتكبون ظلمًا تلو الظلم، ولكنا لا نزال نعاملهم بالمغفرة، ولا نستعجل بالعذاب رغم استعجالهم به، لأن ذلك منافٍ لسنّتنا في العذاب. نريد أن نشملكم بالمغفرة، فلذا نسير بحسب الخطة التي ستؤدي إلى نجاة أكبر عدد ممكن منكم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي يجب أن لا تنخدعوا وتسيئوا فهم سنتنا هذه، فتظنوا أنكم ناجون من العذاب. إنما تتاح لكم هذه الفرص لكي تصلحوا أنفسكم، أما إذا لم تصلحوها فسوف نعاقبكم لا محالة. وتذكَّروا أنه ليس أحد أشد منا عقابًا وعذابًا.

واعلم أَنَّ قوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يعني أن الله تعالى قاسٍ في إنزال العذاب، بل المراد أن عذابه أشد إيلامًا من عذاب الآخرين، فإنه يصيب بآلامٍ ومعاناةٍ تفوق احتمال البشر.

كما أشار باستخدام كلمة "العقاب" إلى أنه سبحانه وتعالى لا يعذّب دونما سبب، بل يكون عذابه نتيجةً حتميةً لأعمال الإنسان. لأن (الْعِقَاب) من (العَقِب) وهو مؤخر القدم، فالعقاب ما يأتي خلف الإنسان ويتعقّبه من ورائه لا محالة، مثل الرضيع الذي يتبع أمه أينما اتجهت.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٨﴾

التفسير: أي بالرغم من أننا قد أظهرنا الآيات مرارًا وتكرارًا، ووعدناهم بإنزالها مستقبلاً، إلا أن الكفار لا ينفكون يطلبون الآيات قائلين: كيف نؤمن ولم يُرنا الله أية آية؟ وهم يعنون بالآية العذاب، لأنه لا معنى للآية عندهم إلا أن يهلكهم الله ويتضح من دراسة القرآن أن مطالبة الكفار بالآية تعني دائمًا نزول العذاب، إلا أنْ تكون هناك قرينة صارفة عن هذا المعنى.

ويرد الله على مطلبهم قائلاً: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.. أي أن هؤلاء الأغبياء لا يفكّرون أن الله تعالى قد جعلك منذرًا، بل هذا هو اسمك الحقيقي إزاء من لا يصدّقك. فلماذا لا يبرحون يسألوننا عن الأمر الذي قد سبق أن أوضحناه أيما إيضاح؟ عليهم أن يتذكروا أيضًا قولنا ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.. فإننا نهتم بهداية كل أمة. فلو جاءهم العذاب قبل أن يهدي هذا الرسول مَن يريد الهدى من بينهم لم يعد هو هاديًا لقومه. فلينتظروا حتى يهتدي على يده الناس، وأما من يتبقى بعدهم فسوف يصبح لهم الرسول منذرًا. وهذا هو ما حدث تمامًا في حياة النبي ﷺ، فكان يهتدي على يده مِـــن القبائل والطوائف مَن كان الهدى من نصيبه. أما الباقون من كبرائهم الذين أصروا على كفرهم فقد هلكوا بالعذاب في آخر المطاف. ولم يزل الأمر هكذا إلى أن جاء الله بأمره الحاسم للموقف، فكتب لنبيه وأصحابه ﷺ الغلبة الكاملة نهائيًا.

اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ

شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

تَغيضُ: غاضَ الماءُ غيضًا: نَقَصَ أو غارَ فذهب في الأرضِ، وفي الصحاح: قلَّ فنضَبَ. وغاضَ ثمن السلعة: نَقُصَ، ويُقال: غاضَ الماءُ والثمنُ. ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ :أي ما تنقص تسعة أشهر. الغيضُ: السِقْطُ الذي لم يتم خَلقه (الأقرب).

تزدادُ: مِن زادَ. يقال: ازددتُ مالاً وازداد الأمر صعوبةً. وازداد الراهن دراهمَ من المرتهن أي أخذها زيادة على رأس المال. "وهل تزداد".. أي هل تطلب زيادة على ما أعطيتكَ، يقوله المعطي للآخذ. والزيادة أن ينضمّ إلى ما عليه الشيء في نفسه شيءٌ آخر (الأقرب).

التفسير: لقد أعلن الله تعالى في الآيات السابقة عن تأييده لرسوله ﷺ، باتخاذ تدابير خفية إذ بيّن أنه خلق كل شيء في الكون زوجين، حتى إن السماء والأرض أيضًا زوجان، فإحداهما مؤثِّرة والأخرى متأثرة، وتحافظ تلك على حياة هذه بطرق غير مرئية. كذلك الحال في العالم الروحاني، حيث يكون بعض الناس بمثابة الذكر فيؤثرون، ويكون غيرهم بمثابة الأنثى فيتأثرون. وقد أخبر الآن في هذه الآية أنه بالفعل قد بَعث –وفق هذا القانون– شخصًا هو بمثابة الذكر في الأمور الروحانية ولا يمكن لأحد إحراز أية درجة في العالم الروحاني بدون إنشاء العلاقة معه .

فالمراد من قوله تعالى ﴿اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أننا على علم بخفايا أعداء رسلنا، ونعرف ما في طبائعهم من مَلكات خفية، وما إذا كانت تتأثر من تأثير روحاني أم بتأثير شيطاني، ومن الذي سيزدهر ومن الذي سيُباد ويُهلك. وقد أشار القرآن بذلك إلى أن الذين سيقبلون دعوة النبي ﷺ سوف يزدادون ويباركون، وسوف تُصقَل قدراتهم ومَلكاتهم. وأما الذين سيقبلون تأثير الشيطان ضد النبي فسوف يهلك الله أولادهم وأتباعهم.

وقد يكون الحَمْل هنا بمعناه المعروف، والمراد أننا نعلم ماذا ستفعل أجيالكم، فإن نساءكم لن يلدن إلا الذرية التي سوف تدين لمحمد رسول الله ﷺ، أما الحمل الآخر فيضيع. وهذا ما حدث فيما بعد، حيث إن الأجيال الجديدة للكفار من أهل مكة دخلت في حظيرة الإسلام بكثرة، ولم يستطع الآباء رغم اضطهادهم للأبناء أن يحولوا دون إسلامهم، وما كان لهم إلا أن يحترقوا حسدًا وحسرة على إسلامهم.

لقد ساعد هذا التدبير السماوي كثيرًا على ازدهار دعوة النبي ﷺ، ولكن لم يستطع الكفار في بداية الأمر أن يتنبهوا إلى ذلك.

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الغيب: غابتِ الشمس وغيرها تغيبُ غيبًا إذا استترت عن العين. واستُعمل الغيب في كل غائب عن الحاسّة، ويُضادُّه الشهادةُ (المفردات). فلكلٍّ من الغيب والشهادة معنيان: الأول هو أن الشهادة ما يُظهره الإنسان وأن الغيب ما يُخفيه. والثاني: الشهادة ما تدركه الحواس الظاهرة، والغيب ما كان أسمى من أن تُحيطه المدارك الإنسانية.

فقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ تحذير للكفار بأننا نعلم كل مكرٍ تمكرونه سواء كان ظاهرًا أو خفيًا. ومن كان غافلاً عن مكر عدوه بينما يكون العدو مُطّلعًا على أسراره فإنه لا يقدر على مقاومته. فحذارِ ثم حذارِ.

الكبير: ذو الكبر، والكِبر: الشرفُ؛ الرفعةُ في الشرف؛ العظمةُ والتجبُر (الأقرب).

المتعالِ: تعالى: ارتفعَ، والمُتَعال: رفيع الشأن. (الأقرب)

والفرق بين الكبير والمتعال هو أن "الكبير" يدل على الرفعة التي يقصد بها المقارنة

للتأثير في الآخرين، مثلما يفعل الشخص المصاب بالكبرياء، حيث يحاول أن يثبت بأنه أكبر من غيره. أما "المتعال" فتدل على الرفعة التي فيها معنى الاستغناء، أي أنه ﷻ أرفع وأسمى من أن تُعقد المقارنة بينه وبين خلقه.

بذكر هاتين الصفتين لقد أنذر الله تعالى الكفارَ بأنه لا وجه للمقارنة بين قدرتنا وبين ما تملكون من قوة. فلستم بشيء أمام قدرتنا. فأنا "الكبير" وسوف أحبط جهودكم وأخيّب مكائدكم، سأسحقكم متى شئت. وأنا المتعال الغني فلن ينقص هلاككم من ملكوتي شيئًا.

التفسير: لقد بيّنت الآية سرًّا هامًا للنجاح، إذ تخبرنا أنه لا بد أن نكون على علم بمكائد الأعداء للتغلب عليهم. فإن كنا مطّلعين على خططهم استطعنا أن نتفادى أضرارهم، وإلا سنبقى مهدَّدين بالخطر كل حين.

ثم قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يا أيها الحمقى، ألا تفكرون، من الذي تريدون محاربته. هل تريدون أن تحاربوا الله الذي يعلم مكائدكم كلها، الظاهرة منها أو الخفية، والذي هو "الكبير" أي القادر على إحباط خططكم في لمح البصر. وهو "المتعال" أي أنكم لا تدرون بمكره وبما يخطط لإبادتكم. فكيف يمكن لكم محاربته؟

سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

سارِبٌ: سَرَبَ البعير سروبًا: تَوَجَّهَ للرَعْي. إبلٌ ساربةٌ: متوجهةٌ للرعي. سرب الماءُ: جرى. وسرَبَ فلان في الأرض: ذهب على وجهه فيها ومضى (الأقرب).

التفسير: كان الكفار يكيدون للنبي ﷺ بنوعين من المكائد؛ علنية أو سرية. فإما أن هددوه على الملأ حتى يخاف ويرتدع، أو تشاوروا في الخفاء لاغتياله. تارة كانوا يهاجمونه نهارًا وجهارًا كاعتدائهم عليه ﷺ في ذلك الحادث الذي ألقوا فيه على ظهره الكريم سلى الناقة وهو ساجد في صلاته بفناء الكعبة المشرفة (البخاري، الوضوء)، أو في محاولتهم خنقَ النبي بردائه، وتارةً أخرى كانوا يهاجمونه ليلاً كما فعلوا في ليلة الهجرة (السيرة النبوية لابن هشام).

فيذكّرهم الله تعالى: إنكم لا تحاربون محمدًا، وإنما تحاربون الله، ولتعلموا أنْ ليس هناك شيء تُسرُّونه خافيًا عليه تعالى، فلن تستطيعوا بمكائدكم العلنية أو السرية أن تضروا رسولي بشيء.

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

معقِّبات: عقَّبه: جاء بعَقبه؛ أتى بشيء بعده. عقَّب فلان: غزا على العدو ثم ثنّى من سَنَته. وعقّب في الأمر: تردّدَ في طلبه مجدًّا. عقّبَ في الصلاة: صلّى فمكثَ في موضعه ينتظر صلاة أخرى. عقّب الحاكم على حكم سَلَفه: حكمَ بعد حكمه بغيره. المعقِّبات: ملائكةُ الليل والنهار؛ التسبيحاتُ يخلفُ بعضها بعضًا؛ (النوق) اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى (الأقرب). قوله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي ملائكة يتعاقبون

عليه حافظين له (المفردات).

مَرَدّ: رَدَّه عن وجهه: صرَفَهُ. ردَّ عليه الشيءَ: لم يقبله. ردّه إلى منزله: أرجعه (الأقرب).

والٍ: وَلِيَ الشيء وِلايةً ووَلايةً: ملكَ أمره وقام به. ووليَ فلانًا وعليه: نَصَرَهُ. ووليَ فلانًا وَلايةً: أحبه (الأقرب).

التفسير: أرى أن ضمير الغائب في قوله ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ..﴾ يعود على النبي ﷺ. والمراد أن هناك ملائكةً معقباتٍ حول النبي ﷺ تقوم بحراسته باستمرار بأمر من الله تعالى، كما يكون للملوك حراس للحماية. وهذا المعنى يتأكد من الحديث الشريف أيضًا، حيث رُوي أن عامر بن طفيل وأربد بن قيس قدما المدينة إلى النبي ﷺ. فقال له عامر: أتجعل الأمر لي (أي الخلافة) بعد أن أسلمت؟ فرّد عليه النبي ﷺ: ليس ذلك لك ولا لقومك. فقال: لأملأن البلاد عليك خيلاً ورجالا. فقال النبي ﷺ: يمنعك الله تعالى. فرجعا غاضبين. فلما خرجا قال عامر: يا أربد، إني سأُلهي محمدًا عنك بالحديث فاضْربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلته لم يزيدوا على أن يرضوا بالدِّيَة ويكرهوا الحرب، فسنعطيهم الدِّية. فقال أربد: أفعلُ. فأقبلا راجعين. فقال عامر: يا محمد، قم معي أُكلّمك. فقام معهما إلى الخارج. فبينما هم في الحديث أراد عامر الواقف وراء النبي ﷺ أن يسل السيف لقتله ﷺ ولكنه لم يستطع رفع يده. وورد في بعض الروايات أن يده كانت قد أُصيبت بالفالج، ولكنها تذكر أيضًا أنه كان ركب فرسه عند العودة، مما يعني أنه لم تصب يده بالفالج بل ألقى الله في قلبه الرعب، فلم يجرؤ على الهجوم على النبي ﷺ بل وقف منبهرًا مبهوتًا. وتقول الرواية بعد ذلك أن النبي استدار ونظر إلى الخلف فوجد عامرًا واضعًا يده على مقبض السيف، فتنحّى من مكانه إلى الوراء دون التعرض لهما. فرجعا خائبين خاسرين. وفي الطريق نزلت الصاعقة على أربد، بينما مات عامر نتيجة دُمَّلٍ كبير. يتضح من هذه الآية أن الصحابة رضوان الله عليهم أيضًا يرون أن هذه الآية تتحدث عن عصمة النبي ﷺ

خاصة.

الحق أن حياة النبي ﷺ ما بعد الدعوة كلّها شاهدة على العصمة الإلهية. فإن الملائكة هي التي كانت تحرسه في الفترة المكية، وإلا لما كان لينجو من الأعداء الذين حاصروه من كل صوب. أما بعد الهجرة إلى المدينة فقد تمتع فعلاً بالحماية بنوعيها: حماية ملائكة السماء وحماية ملائكة الأرض أي الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وإن معركة بدر أصدق مثال على هذه الحماية المزدوجة. لقد تعاهد النبي ﷺ مع أهل المدينة قبل أن يهاجر إليهم، أنه لو حاربه العدو خارج المدينة فلن يكونوا ملزمين بالخروج معه. وقبل أن يخرج النبي ﷺ لملاقاة العدو في وقعة بدر، استشار المهاجرين والأنصار. فكان المهاجرون يشيرون عليه بكل حماس بالخروج من المدينة، ولكنه ﷺ لم يزل يقول: أشيروا عليّ أيها الناس. فتقدم المقداد بن الأسود الأنصاريّ* وقال: والله لكأنك تـــريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. فقال الأنصاري: يا رسول الله لا شك أننا اشترطنا عليك هذا، ولكنا كنا حين ذاك حديثي العهد بالإسلام. أما وقد شهدنا الآن واختبرنا أنك رسول الله حقًا، فلا حاجة للاستشارة. والله لو أمرتنا أن نخوض بخيلنا البحر لخضناه. والله، إنا لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكننا سنقاتل العدو عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ولن يَخلصوا إليك ما لم يطئوا جثثنا الهامدة (البخاري، المغازي، مسلم، الجهاد؛ السيرة لابن هشام، غزوة بدر).

وكانت مقولته هذه أحب إلى الصحابة لدرجة أن قال أحدهم: لقد شهدت مع النبي ﷺ ثلاث عشرة غزوةً، ولَأنْ أكون صاحب هذه الكلمة أَحَبُّ إلي مما فعلت (البخاري، المغازي).

* لقد نُسب القول نفسه في بعض المراجع إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة. (الناشر)

فأرى أن هؤلاء الصحابة الفدائيين الكرام رضي الله عنهم أيضًا يندرجون ضمن المعقبات الذين أمرهم الله ﷻ بحماية نبيه ﷺ.

وقوله تعالى ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ﴾ أي أنهم يقومون بحمايته بأمر من الله تعالى ابتغاء مرضاته، وليس تعصبًا لفئة أو لقريب؛ ولا خوفًا من سلطان. إذ لاشيء يجمعهم على يد واحدة سوى الدين. لقد قال أحد الكفار للنبي ﷺ عند صلح الحديبية: يا محمد أجمعت أوشاب الناس (أي أخلاطهم). وأيمُ الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك (السيرة لابن هشام). ولكن هؤلاء أكدوا إخلاصهم ووفاءهم وفداءهم له ﷺ رغم أنه لم تكن هناك صلة دنيوية تربطهم به.

كما تعني الآية أيضًا أن الله تعالى قد عين حراسًا لكل إنسان يحمونه من شتى الأخطار. وفي هذه الصورة يكون ضمير الغائب في ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ عائدًا على (مَّنْ) في قوله ﴿سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ..﴾ .

الواقع أننا لو أمعنا النظر لأدركنا أن أنواع السموم تدخل أجسامَنا في كل لحظة، فمثلاً عندما نتنفس تدخل فينا الجراثيم لأمراض مختلفة من أنفاس الآخرين. ولكن الله تعالى قد جعل في أجسامنا نظامًا يقضي على هذه السموم المتنوعة فور دخولها في الأجسام. ثم إن الإنسان مهدد في كل حين بأنواع الأخطار الأخرى من داء بدني أو صدمة نفسيّة أو خسارة مال أو هتك عرض وغيرها، وإنما الله الذي يحميه منها، وعندما يرفع عنه حمايته يقع في الأذى بل إنّه يهلك حتمًا.

وإن في هذا تحذيرًا للكفار بأنهم يَنعَمون بهذه الراحة بسبب حمايتنا، فإنْ هم أَبَوْا إلا الإصرار على الشر والفساد فسوف نرفع عنهم حمايتنا فيهلكون.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فلا يعني أنه تعالى لا يعامل أهل السوء بالرحمة والشفقة، بل المراد أنه لا يغير معاملته الحسنة مع الأبرار، اللهم إلا أن يغيروا ما بهم ويصبحوا أشرارًا. أي أن سنة الله تعالى أنه يعامل الشرير أيضًا باللطف والرحمة رغم شره، ولكنه لا يعامل أهل الصلاح أبدًا إلا بالحسنى

إلى أن يتغيروا وينقلبوا أشرارًا فاسدين.

حينما يتطرق الفساد إلى قوم ويتعرضون للمصائب التي تشتت شملهم وتهلكهم – كما تعني كلمة التغيير في الحقيقة– فليعلموا أنهم قد غيروا ما بأنفسهم من صلاح وخير، وصاروا أشرارًا فاسدين.

وقوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ فاعلم أن السوء معناه الشر أو الأذى، وكلمة (والٍ) اسم فاعل من وَلِي الأمرَ أي مَلَكَه، والمراد من الجملة أن الله تعالى إذا قرر معاقبة قومٍ فلا أحد يمنعه من ذلك، ولا أحد يستطيع حمايتهم ولا ينصرهم ضد قضاء الله تعالى. وقد ذكر هنا صفة الولاية ليؤكد كونه المالك الوحيد. كأنه تعالى يقول: ما دمنا نحن الذين نملك كل شيء ونحفظ الجميع، فمن ذا الذي يحفظ شخصًا رفعنا عنه حمايتنا. فمثل هذا الشخص سيبقى معرضًا للشر والأذى.

وقد صرّح بذلك أنه ﷻ سوف يقوم بحماية محمد ﷺ ولكنه سوف يرفع حمايته عن أعدائه المجرمين.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات :

يُنشئُ: أنشأه إنشاءً: ربّاه. أنشأ الشيءَ: أحدثه. أنشأ الله الشيءَ: خلقه. أنشأ الله الخلق: ابتدأ خلقهم. أنشأ فلان الحديثَ: وضعه. أنشأ الله السحابة: رفعها. أنشأ فلان دارًا: بدأ بناءها. وأنشأ زيد: أنشد شعرًا أو خطبَ بخُطبةٍ فأحسن فيها (الأقرب).

السحاب: الغيم كان فيه ماء أو لم يكن فيه، والواحدة سحابةٌ. ويوصف (السحاب) بالمفرد مراعاة للّفظة كقول القرآن ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء

وَالأَرْضِ﴾، ويوصف بالجمع مراعاة لمعناه كقوله أيضًا ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (الأقرب).

التفسير: يسبب البرق خوفًا وطمعًا للناس، فَهُم يخافونه كيلا تصيبهم صاعقة منه فتهلكهم، ويحبونه طمعًا في الغيث، لأن البرق ينشأ عمومًا في السحب الممطرة. كما أن البرق يشكل خطرًا على الجنين وعلى بعض النباتات، ولكن في الوقت نفسه فإن لَمعانه يقضي على شتى الجراثيم السامة، ويطهر البيئة من مختلف الأوبئة.

وهذا ما تفعله السحب الثقيلة أيضًا، فتارة تكون هذه السحب رحمة إذ تتسبب في عمران البلاد، وتارة أخرى تنقلب نقمةً إذ تخرب المدن وتدمر الزروع .

لقد وضح القرآن بهذا المثال أن الشيء الواحد يمكن أن يكون سبب خير وبركة أحيانًا، كما يمكن أن يصبح مهلكًا ومدمرًا في بعض الأحيان. يلمع البرق وتمطر السماء فيجني بها البعض منافع كثيرة، بينما يتضرر بها الآخرون أضرارًا فادحة. فثبت أن الشيء لا يكون في حد ذاته نافعًا أو ضارًا، وإنما نفعه أو ضرره أمر نسبي. فمثلاً لو سُئلنا: هل السحب الثقيلة خير أم لا، فإننا لا نستطيع الجزم بخيرها أو شرها دون النظر إلى الظروف والحاجة. عندما تعلو الغيوم السماءَ يقول الذي يبني بيتًا "إن هذا المطر سيدمّرني"، بينما يقول الفلاح الذي يرى زرعه يهلك بسبب الجفاف: "إن هذا المطر سيُحيِيني".

فالله تعالى ينبه الكفار إلى أن المنفعة أو الخسارة المؤقتة أمر نسبي، وعليهم أن لا يتباهَوا ولا ينخدعوا بما عندهم من أسباب ووسائل، فإنها ظل زائل. لأن المال أو البنين أو الأقارب أو السلطة لا تنفع في كل الأحوال ، بل إنها قد تنقلب أحيانًا إلى مصائب ومحن. فعليهم أن لا ينظروا إلى ما بأيديهم من أسباب، بل أن ينظروا إلى ما في قلوبهم من مشاعر وأحاسيس. فإذا كانت قلوبهم فاسدة فلن تنفعهم هذه الأموال والأسباب شيئًا ولن تحقق لهم رقيًا، بل إنها ستكون عليهم وبالاً ودمارًا.

إن هذا الموضوع –ولا شك– موضوع هامٌّ ولطيف وواسع للغاية، بحيث نستطيع

على ضوئه تأليف عشرات المجلدات حول ظاهرة رقي الأمم وانحطاطها.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

يسبّح: سبّحَ اللهَ: نزّهه (الأقرب)

الرّعدُ: رعد السحابُ: صات وضجّ للإمطار. والرّعدُ: صوت السّحاب (الأقرب)

الصواعق: الصاعقةُ: الموتُ؛ كلُّ عذاب مهلك؛ صيحةُ العذاب؛ نارٌ تسقط من السماء في رعد شديد لا تمرّ على شيء إلا أحرقته (الأقرب)

المِحالُ: ماحلَه مُماحلة ومِحالاً: ماكَرَه وكايدَه؛ قاواه حتى يتبيّن أيّهما أشد. المِحال: الكيدُ؛ رَومُ الأمر بالحيل؛ التدبيرُ؛ المكرُ؛ القدرةُ ؛ الجِدالُ؛ العذابُ؛ العقابُ؛ العداوةُ؛ القوةُ والشدَّةُ؛ الهلاكُ؛ الإهلاكُ (الأقرب). وقيل: المِحال من الحَول والحيلة. (المفردات)

التفسير: إنكم تظنون أيها الكافرون، وأنتم تنظرون إلى المسلمين المحاصَرين في المحن والمصائب، أن هذا الرعد الرهيب سوف يدمّرهم، ولكن ظنكم خاطئ، لأن الرعد لا يكون مهلكًا لكل إنسان ولا في كل الظروف، كما لا تكون السحب نافعة لكل إنسان في كل وقت. فإن الشدائد لا تأتي لإهلاك الإنسان المؤمن، بل تتسبب في ازدهاره وظهور ملكاته الكامنة، وترفع معنوياته، وتزيده قربًا وحظوة من ربه. إن البرق والرعد كليهما مِن خلق الله فَأنّى لهذه الظواهر الربانية أن تهلك عباد الله

المخلصين. إن هذه الظواهر كلها تسبح الله وتنزّهه فلو أنها سقطت على محمد ﷺ وأهلكته -والعياذ بالله- فإنها لن تعتبر مسبحة له سبحانه وتعالى، بل سوف تكون مسيئة إلى الله ﷻ، ولكنها ما دامت طائعةً لأمر الله فلن تجلب لأحبائه إلا الخير والنفع، ولن تسقط إلا عليكم أيها الأشرار.

ثم قال ﴿وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي ليس الرعد وحده، بل إن الملائكة الذين هم السبب الأول المدبر للرعد وغيره أيضًا يسبحون الله خائفين منه ﷻ. فمن كان الله معه فلن تجلب له النواميس الطبيعية والأسباب المادية بكل أنواعها إلا النفع والخير.

ثم قال ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ﴾ أي لو تدبرتم في الأمر لعرفتم من هو الذي سيُسقط الله عليه الصواعق. هل تظنون أن الله الذي يتحكم فيها سوف يصيب بها الذين ينصرون دينه، أم يُسقطها على الذين يحاربون دينه؟ لا جرم أنه سيدمّر بها أعداء دينه ﷻ.

وقد صرح بقوله تعالى ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ﴾ أن الحديث هنا ليس عن النواميس الطبيعية والظواهر العادية، بل إن الله تعالى يوجه بهذا المثال تهديدًا بالعذاب لأعداء الإسلام الذين يجادلونه في دينه.

كما أشار بقوله ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ إلى أن الجدال مع الله ﷻ ليس بأمر هين، لأن تدابيره خفية متينة للغاية، وتأتي بنتائج مدمرة.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إلا فِي ضَلالٍ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

دعوة الحق: دعا فلانًا دعوةً: طلبه ليأكل عنده (الأقرب) حَقَّه حقًا: غلبه على الحق. وحقّ الأمرَ: أثبَتَه وأوجبه؛ كان على يقين منه. حقّ الخبرَ: وقف على حقيقته. والحقُّ: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضيّ؛ العدلُ؛ الملكُ؛ الموجودُ الثابتُ؛ اليقينُ بعد الشك؛ الموتُ؛ الحزمُ (الأقرب). فقوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يعني:

١) أن نداء الله هو النداء الحق.

٢) أن نداء الله هو النداء الغالب.

٣) إنما الدعاء النافع ما يدعو به الإنسان ربَّه.

٤) إنه تعالى هو الأحق بالدعاء أي العبادة.

٥) إنه تعالى هو القادر على تغيير القدر.

لا يستجيبون: استجابة واستجاب له: رد له الجوابَ (الأقرب)

ضلال: ضلّ عني كذا: ضاعَ. ضلّ فلانٌ الفرسَ والبعيرَ: ذهبا عنه. (الأقرب)

التفسير: كما ذكرنا في شرح الكلمات فإن الآية تعني:

١) أن نداء الله هو النداء الحق، بمعنى أن التعليم الحق تمامًا، المترَّه عن الخطأ كليةً إنما هو ما يترل من عند الله، أما ما يخترعه الإنسان بنفسه من منهج وتعليم فلا يخلو من الزيف والخطأ. فلا تظنوا أن تعاليمكم الفاسدة سوف تقاوم تعليمه الحق الطاهر، بل إذا اصطدمت تعاليمكم بتعليمه فسوف تعترف الدنيا بفضل تعليمه الأعلى لا محالة.

٢) أن نداء الله هو النداء الحق الغالب المقضي. إن أصوات الملوك الدنيويين تذهب سدىً في بعض الأحيان. فمثلاً: إذا أعلن الملك عن عقاب مجرم فإنه قد يهرب من ملكه، أو إذا أراد الملك الإساءة إلى أحد من رعاياه فقد يفاجئه الموت قبل أن يُخزِيَ عدوَّه. ولكن الله أسمى من هذه النقائض، فإنه يفعل ما يريد ولا رادّ لحكمه ولا مانع لأمره.

٣) أنما الدعاء النافع الناجح ما يدعو به الإنسان ربه.. أي أن الابتهال إلى الله تعالى ضمان للنجاح.

٤) أن الله وحده الأحق بالعبادة بكل أنواعها. فالذي يعبد ما سوى الله، فإنه كالذي يصنع المعروف في غير أهله، فيصبح ظالمًا وناكرًا للجميل.

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلا فِي ضَلالٍ﴾ أي أنهم لا يجنون أية منفعة بدعائهم مما يعبدون من دون الله. وإذا ما تحقق بعض ما ينشدونه أحيانًا فلا يخرج عن كونه صدفة لا غير، إذ لا دخل لهذة الآلهة الباطلة في تحقيقه.

لقد بين الله تعالى في هذه الآية أن الإنسان كما يُـــحرَم من الانتفاع بالشيء العالي إذا حطه من مكانه واعتبره رديئًا..كذلك لا يمكنه الانتفاع من الشيء الأدنى درجة إذا ما رفعه من مقامه الوضيع، لأن مثاله كمن يعتبر العملة الأصلية زائفة فلا يشتري بها طعامًا يسد به الجوع وإنما يقاسي من قرصات الجوع، أو كمن اعتبر العملة الزائفة صحيحة فيتكبد العناء أيضًا، لأنها لن تغنيه عند الحاجة شيئًا. من لم يكن عنده معرفة بصفات الله تعالى يبقى محرومًا من رحمته وفضله إذ لا يقدر على أن ينتفع بهذه الصفات. أو الذي ينسب صفات الخالق إلى المخلوقات ويتخذها آلهة فإنه لن يتمكن من الانتفاع بما في هذه المخلوقات من منافع وفوائد مختلفة. خذوا الماء على سبيل المثال، فقد خلقة الله لفائدة الإنسان، ولكن لو اعتبر أحد الماء إنسانًا مثلاً وبدأ يناديه باسطًا كفيه إليه، كما ينادي الناسَ وذلك لكي يأتي الماء إليه، فإنه يُحرم مما في الماء من منافع وفوائد، لأن الماء لن يأتي إليه أبدًا. ونفس الحال بالنسبة للمخلوقات الأخرى. فالذين يتخذونها آلهةً يبقون محرومين من المنافع الكامنة فيها. فمثلا: كيف يمكن للذين يتخذون النجوم والأنهار والجبال وغيرها آلهة أن يتجاسروا على تسخيرها واستغلالها وهي آلهتهم؟!

فالحق أن الذين يتخذون البشر آلهة لن ينتفعوا بهم. والذين يرفعون النبي إلى درجة

الإله أيضًا لا يمكن أن ينالوا البركات والمنافع المنوطة بالنبي، لأنهم لا يعاملونه كنبي، ولا يجدون لديه المنافع والبركات التي تُرجى من الله الخالق فقط، ذلك لأن النبي ليس بإله كما يظنون.

والحقيقة أن هذا هو السبب الأكبر في تخلف الهند عن مواكبة البلاد الأخرى في مجال الرقي والتقدم، لأن أهلها بدءوا يؤلهون الماء والنار، ولا يبرحون عاكفين على عبادتهما. والحق أنهما أكبر العناصر التي يتوقف عليها تقدّم الإنسان ورقيه، وقد سخّرهما الأوروبيون لاحتياجاتهم الحياتية فسبقوا أمم العالم. ولكن قد بلغ الجهل بالهندوس درجة أن الإنجليز عندما بدءوا أثناء حكمهم لبلاد الهند في شق قناة من نهر "الغانج" أثاروا ضجةً واحتجوا على الإنجليز قائلين: لماذا تقطعون آلهتنا.

وهذا ما فَعلَه المسلمون أيضًا زمن انحطاطهم حيث بدءوا يخلعون على الموتى صفاتٍ تخص الله وحده ﷻ، ويتوسلون إليهم لسدّ الحاجات ودفع الخطوب. فكانت النتيجة أنهم حُرموا من المنفعة الحقيقية التي كان بإمكانهم أن يجنوها من أولياء الله هؤلاء، أعني أن يتأسّوا بأسوة هؤلاء الصالحين. أما الدعاء فما كان بإمكان هؤلاء الأموات أن يستجيبوا له. وهكذا لم يكسب هؤلاء المسلمون شيئًا برفع هؤلاء الصلحاء إلى مقام أعلى من مكانتهم الحقيقية.

وباختصار فقد أخبر الله تعالى هنا أن الشرك عائق كبير في رقي الإنسان، وأنه ليس بإمكان المشرك أن ينتفع حقًّا مما أودع الله في خلقه من منافع ومرافق.

وأما قوله تعالى ﴿وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إلا فِي ضَلالٍ﴾ فالمراد منه أن نداءهم لا يصل إلى من يجب أن يتوجهوا إليه بالدعاء، فلا يستجاب. ذلك لأن الدعاء النافع هو ما يصل إلى الله تعالى فقط. فلو أُرسلت الرسالة إلى غير المرسَل إليه تُرى أي جدوى يمكن أن تُرتجى منها سوى أنها ستُهمَل حتمًا. كذلك هي حال دعاء الكافرين، فإن دعاءهم لا يصل إلى الله تعالى الذي وحده يستجيب الدعاء. فلو أنهم وجَّهُوا أدعيتهم إلى الله تعالى لَوَصلت إليه حتمًا، ولكانوا قد انتفعوا بها. ولكنهم توسلوا بها إلى

المخلوقات التي لا تملك القدرة على الرد والاستجابة، لذلك ضاعت أدعيتهم، وذهبت جهودهم أدراج الرياح.

كما وضّح بقوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أيضًا بأن الله هو المتصرف في القضاء والقدر، ومن لم يكن على صلة به سبحانه وتعالى فلن يؤيدهم القدر الإلهي.

كما بيَّـــن بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ...﴾ أن تدابيرهم أيضًا خاطئة وفي غير محلها. وكأنما قال بأنهم لن يتلقوا نصرًا من الله كما لن تنفعهم تدابيرهم، إذن فكيف السبيل إلى نجاحهم؟

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

يَسجُدُ: سَجَدَ يسجدُ فلانٌ: خضع وانحنى. فلانٌ ساجدُ المِنخَر: ذليل خاضع. سجد البعير: خفض رأسَه. سجدت السفينة للرياح: طاعتها ومالت بميلها(الأقرب).

ظلالهم: "الظلُ: نقيضُ الضَحِّ وهو الفَيء، أو هو بالغداة والفَيء بالعشيِّ".

(ولكن هذا مما يخالف القرآن، لأنه قد أطلق الظلال على ما يكون في الصباح وما يكون في المساء).

"وقال رُؤبةُ: كل موضع تكون فيه شمس فتزول عنه فهو ظل. يقال ظل الجنة ولا يقال فَيْؤُها، وإنما هي دائمًا ظلٌ وجمعه ظلال. والظل: ما يُرى من الجن وغيره؛ العزُّ والمنعةُ؛ الرفاهةُ؛ الليل أو جُنحه أو سواده. والظل من كل شيء: شخصه أو كِنُّهُ. والظل من الشباب: أوله، وفي "الأساس": وكان ذلك في ظلّ الشتاء أي في أول ما

جاء. والظلّ من القيظ: شدّتُه، تقول: سِرت في ظلّ القيظ.. في شدّته. والظلُّ من السحاب: ما وارى الشمسَ منه؛ أو سوادُه. والظلُّ من النهار: لونُه إذا غلبته الشمسُ. هو في ظلّه أي في كنفه. والظِّلالُ أيضًا جمع الظُلّة وهي: الغاشيةُ؛ والبُرطُلّةُ أي المِظَلة الضيقة. وفي "التعريفات": الظُلةُ هي التي أحد طرفي جذعها على حائط هذه الدار وطرفها الآخر على حائط الجار المقابل. والظُلّةُ: أول سحابة تُظل؛ ما أظلك من شجر؛ شيءٌ يُستتر به من الحر والبرد. (الأقرب)"

الظلُّ: الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس مطلقًا، ومنه: سبعة في ظل العرش أي في ظل رحمته تعالى. وجاء: سبعةٌ في ظلّه أي في ظل الله. هو في عيشٍ ظليلٍ، والمراد ظلُّ الكرامة. قد يُكنى من الكنَف. وفي الحديث: الكافر يسجد لغير الله وظلّه يسجد لله.. أي جسمُه (مجمع البحار)

الظلُّ: ضدُّ الضَحّ وهو أعمّ من الفيء، فإنه يُقال: ظل الليل وظل الجنة. ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس ظلٌّ، ولا يُقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس. ويُعبَّر بالظل عن العزة والمَنعة وعن الرفاهة، قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ﴾ أي في عزة ومناعٍ. وأظلّني فلانٌ: حرسني وجعلني في ظله وعزه ومناعته. وقد يُقال ظلٌّ لكل ساتر محمودًا كان أو مذمومًا، قال: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾. والظِلال إما جمع ظُلّة وإما جمع ظِل. (المفردات)

الظلالُ كما ذُكر في شرح الكلمات جمعُ ظِل أو ظُلة. ومن معاني الظل: الفيء، وهنا لا ينطبق هذا المعنى، وإنما ينطبق المعنى الآخر وهو الوجود والشخص، والمراد أن وجود كل الأشياء خاضع للنواميس الإلهية. أما لو كانت الظلال جمع ظلة، فالمراد منه الأسياد والحكام الذين يعملون على راحة رعاياهم خاضعين طائعين لأوامر الله، كما تهيئ الظلة الراحة للناس.

الغُدُوّ: جمعُ الغُدوة والغَداة وهي البُكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس (الأقرب)

الآصال: جمعُ أصيل وهو وقتٌ ما بعد العصر إلى المغرب (الأقرب)

التفسير: تبين هذه الآية أن كل شيء خاضع للنواميس الإلهية، طائعًا أو كارهًا، سواء فيه المؤمن و الكافر والمشرك وحتى الملحد. فكل جزء من الإنسان خاضع لهذه النواميس. فمثلاً إذا وضعت على اللسان شيئًا، فإنه مضطر لتذوقه، وإذا وصل الصوت إلى الأذن فإنها ستسمعه لا محالة. ولكن هذا خضوع إجباري جِبِلّيّ. أما الخضوع الخياري الذي يكون عن طواعية ورغبة فمثاله: أكلُنا الطعام عند الجوع، ورؤيتُنا المشهد الجميل، وخروجُنا للنزهة. والحق أننا لو تدبرنا بعمق لوجدنا أن الإنسان وإن بدا حرًّا في أعماله إلا أنه في الواقع مجبر إلى حدّ ما في كل أعماله، مما يشكل دليلاً على تدخُّل قوة خارجية في شؤون حياته.

كما أن الآية تبين لنا نوعية الوسائل الخفية والتدابير الدقيقة التي يتخذها الله تعالى لنصرة رسوله ﷺ إذ يقول: إن من هذه التدابير ما لا يستطيع الكفار مواجهته، فيرضَون بها رغم أنفهم، ومن هذه ما سيرضون به طوعًا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعًا وأنه خير لهم، ولكنه في الواقع شر لهم وصالح للنبيِّ ﷺ. ومثال هذا ما أكره عليه المكيوّن النبيَّ يوم الحديبية من شروط قاسية للهدنة، ظانين أنها خير لهم، ولكنها كانت خيرًا للمسلمين وشرًا للكفار، كما أكدت الأحداث ذلك فيما بعد. ومثاله الآخر طردهم النبيَّ ﷺ من مكة، ظنًا منهم أن طردهم المسلمين قد يخلصهم من المشاكل، ولكن النتيجة كانت على عكس توقعاتهم، حيث صارت الهجرة حجر أساسٍ لحرية المسلمين وازدهار الإسلام.

ومثال التدابير الإلهية التي رضُوا بها كرهًا ما حدث بفتح مكة، حيث وضعوا السلاح أمام النبي ﷺ وهم كارهون. ومثاله الآخر عدمُ تعرض الكفار بالسوء لبعض الصحابة في مكة خوفًا من عشائرهم وقبائلهم التي كانت تتمتع بالمنعة والنفوذ.

كما يمكن أن تكون كلمة (طَوْعًا وَكَرْهًا) إشارة إلى المؤمن والكافر، والمراد أن المؤمن يطيع الله تعالى عن حب وطواعية، وأما الكافر فيطيعه على كرهٍ ومَضَضٍ.

قوله تعالى ﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ لقد سبق أن بيّنت أن الظل الفيء أيضًا، أي عدم النور، وهذا المعنى لا ينطبق هنا، إذ لا معنى لسجود الشيء الذي هو معدوم وغير موجود، وإنما ينطبق هنا المعنى الآخر وهو وجود الشيء وشخصه. فالمراد من الآية أنه علاوة على السجود الطوعي أي الذي يتم عن الإرادة ، فإن سوادَ كل كائن خاضعٌ للنواميس الطبيعية التي وضعها الله، حتى إن الكافر أيضًا خاضعٌ جسمه لطاعة هذه النواميس الإلهية المتحكمة في الكون وإن كفر بالله تعالى بقلبه ولسانه.

كما يعني الظل مجازًا: التابع، فيقولون: السلطان ظلُّ الله، أي تابع له ﷻ؛ من هنا فقد تعني الآية أن كل ذوي الأرواح ومَن تحت حكم الكفار هم طائعون لله تعالى.

وأما إذا اعتبرنا كلمة (الظلال) جمعًا للظلّة التي تعني لغةً: كل شيء يهيئ الظل للإنسان كالخباء وغيره، والتي تعني مجازًا السيد والسلطان، فالمراد أن عامة الناس أو أسيادهم الذين يعملون على راحتهم كلهم خاضعون لله تعالى.

والرأي عندي أن لا بأس في اختيار كل هذه المعاني للظلال، ويكون المراد: أن كل شيء في الكون، وكل سيّد ومسودٍ خاضعٌ لأمر الله تعالى، فإذا لم ترتدعوا أيها الكفار عن معارضة محمد ﷺ، فسوف يجعل الله كل من هم فوقكم أو دونكم ينقلبون عليكم ويصبحون لكم أعداء. وهذا المعنى يتأكد من آية أخرى من هذه السورة نفسها حيث يقول الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد:٤٢). أي أولا يرى الكفار أننا ننقص حكومتهم من الناحيتين كلتيهما، من ناحية عليَّة القوم وكبرائهم، ومن ناحية عامة الناس وفقرائهم، حيث ينفصل عنهم البعض كل يوم وينضمون إلى صفوف محمد، وستكون النتيجة أنه لن يبقى في أعدائه إلا أئمة الكفر هؤلاء وحدهم، بينما أهل البلد جميعًا سينضمون إلى رسول الله ﷺ.

وقد قال ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ لأن الظل يطول في هذه الأوقات من النهار كثيرًا، كما أن تحوُّل الشمس من هنا إلى هناك هو الذي يبرز الظل ويظهره. ثم إن التابع ينوب عن سيّده ويمارس السلطة عند غياب السيّد، وذلك إذا كانت البلاد مترامية

الأطراف. فكأن الله بقوله ﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ يقول إنه مهما كان ملكُكم واسعًا، فإنكم وأظلالكم أي أتباعكم ونوابكم تحت قبضة القدرة الإلهية. كما بيّن أنه سواء حاربتم رسولنا بأنفسكم أو بعثتم نوابكم وخدمكم لمحاربته فإن الله تعالى يكتب لكم الفشل. أي لن تستطيعوا بمكائدكم إلحاق أي ضرر بمحمد ﷺ.

واعلم أن الظل يتطلب وجود الأصل -كما أثبتنا في شرح الكلمات- إذ لولا الشمس لما كان هناك ظل. مما يدلّ على أنّ معارضي جماعتنا مخطئون في قولهم بأن مجيء نبي ظلّي في الأمة الإسلامية منافٍ لكون سيدنا محمد خاتمَ النبيين ﷺ. فالنبوة الظلّية تؤكد على وجود النبوة الأصلية الحقيقية و لا تعني نسخها أبدًا. والحق أنها شهادة كبيرة عليها وليست منافية لها.

قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

أولياء: جمع وليّ، وهو: المحبُّ؛ الصديق؛ النصير (الأقرب).

لا يملكون: مَلَكَهُ: احتواه قادرًا. مَلَكَ على القوم: استولى عليهم. ملك على فلان أمرَه: استولى عليه. ومَلَكَ الخشْفُ (ولدُ الظبي) أُمَّه: قوِي وقدَر أن يتبعها (الأقرب).

الواحد: بمعنى الأحد أي المنفرد الذي لا نظير له أو ليس معه غيره (الأقرب).

القهّار: قَهَرَه قهرًا: غلبه. والقهّار فعّال للمبالغة (الأقرب).

التفسير: إنه لمن عجائب القدر أن عبادَ الله الأبرار الذين رفعهم الناس بعد موتهم من مكانتهم الحقيقية وجعلوهم آلهة، أقول إن جميع هؤلاء قد عاشوا عيشة حافلة بالمحن والآلام. فمثلاً اضطر المسيح الناصري عليه السلام للهجرة من وطنه، وأما الحسين رضي الله عنه فقد استُشهد، وأما شندرجي* فقد ابتُلي بشتى المصائب على يد قومه. وبقوله ﴿لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ بيّن الله تعالى أن هؤلاء ما قدروا على حماية أنفسهم من أذى الأعداء، فكيف يمكن أن يغنوا عنكم شيئًا.

ثم قال ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾.. أي أنكم مصابون بالغرور لكثرتكم، ولكن هلَّا فكّرتم أن الكثرة العددية لا تنفع في كل حين. تُرى هل ينفع العميان اجتماعُهم بعدد كبير ضد رجل واحد بصير. أليس صحيحًا أن البصير الواحد غالب على ألف أعمى. هذا هو مثلكم ومثل محمد وأتباعه ﷺ. إنهم مبصرون لأنهم مطلعون بفضل وحي الله إليهم على ما تحيكونه ضدهم من المكائد والمؤامرات، ولكنكم عميان، لأنكم لا تعلمون ماذا يجري ضدكم في المعسكر الإسلامي، لأن معظم خططهم تتم بتأثير خفي من السُنن الإلهية التي يستحيل عليكم إدراكها. إذن فكيف تستطيعون مقاومة مثل هذا المعسكر والذين فيه؟ فلا ضيرَ إذا كانوا قلةً، فإنهم مبصرون وليسوا عميانًا مثلكم.

ثم قال ﴿هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي لا وجه للمقارنة بين النور والظلمات، لأن النور وإن كان ضئيلاً قادرٌ على تبديد ظلمة الغرفة وعلى إضاءَتها. إن الظلام يعني انعدامَ النور، والنور يعني الوجود، فشتان ما بين الوجود والعدم. وكأنه تعالى يقول:

---

* كان أحد الأنبياء المبعوثين إلى الأمة الهندوسية كما يبدو من أحوال حياته، ولكنهم اتخذوه فيما بعد إلهًا. (الناشر)

إن محمدًا عنده كلام الله وتعاليمه، وأنتم لا تملكون هذه الميزة، ثم إن تعاليمه مبنية على الحق والصدق، وأما عقائدكم فلا تستند إلى أي برهان، بل أساسها الجهل والعناد، فما وجه المقارنة بين تعاليمه وبين تعاليمكم.

ثم قال إفحامًا للمشركين: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أنكم رغم اتخاذكم آلهةً من دون الله فإنكم لا تستطيعون الادعاء بأن هذه الآلهة قد خَلَقَتْ أي شيء مماثل لما خلقه الله من شتى المخلوقات. ولم يتجاسر مشركو مكة على أن يتفوّهوا بهذا الادعاء، وإن كان المشركون في بلاد أخرى تظاهروا بمثل هذه المزاعم والدعاوي.

ومن المؤسف أن المسلمين اليوم أيضًا صاروا يزعمون أن المسيح الناصري عليه السلام كان يخلق الطيور وغيرها، وشطَّ بعضهم في الخيال لدرجة أن قالوا: لقد اختلط ما خلق المسيح وما خلقه الله تعالى من طيور، فلا نستطيع الآن التمييز بينها!

كان سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا قصة من هذه القصص وهو يقول: سألت مرة أحد المشائخ: تزعمون أن المسيح عليه السلام كان يخلق الطيور، فماذا خلق منها؟ قال: الخفاش. فقلت: أي من الخفافيش هي من خلق المسيح وأيها من خلق الله سبحانه وتعالى؟ قال: لقد اختلطت بعضها بالبعض، ولسنا بقادرين على التمييز بينها! (الخزائن الروحانية ج١٧، تحفة غولروية ص ٢٠٦).

وإنه لمما يبعث على الأسف الشديد أن هؤلاء المسلمين قد قالوا بما لم يتجاسر على التفوه بمثله حتى مشركو مكة، دون أن يفكروا أن لا أحد في العالم سيقبل هذه المزاعم التي لا يدعمها أي دليل ولا برهان!

أما قوله تعالى ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فاعلم أن القرآن الكريم قد ذكر اثنين من أسماء الله الحسنى تعبيرًا عن وحدانيته سبحانه وتعالى، وهما: الأحد والواحد. والأحد اسم تنزيهي، أي يدل على انفراديته ووحدانيته حيث لا تفكر أذهاننا بعده في العدد الثاني والثالث. وأما الواحد: فيشير إلى البداية وينتقل الذهن

بعده إلى الأعداد الثاني والثالث والرابع فصاعدًا. وقد أشار باستخدام صفته (الْوَاحِدُ) إلى أنه منبع كل المخلوقات. فبالرغم من أن الخلق لا يشابهه سبحانه وتعالى في كمالاته لأنه غني عن العالمين جميعًا، إلا أن كل موجود يشير إليه ﷻ. مثل عدد "الواحد" الذي يشير إلى الثاني والثالث والرابع وهلمّ جرّا.

فقد جاء بقوله ﴿هُوَ الْوَاحِدُ﴾ تدليلا على كونه (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)، حيث قال: إذا لم تعتبروا الله خالقًا لكل شيء، فلن تثبت وَحدانيته، لأن بعض المخلوقات سوف تشير إلى منبع آخر دونه. وإذا لم تعتبروه واحدًا، للزم أن تؤمنوا بوجود خالق آخر إلى جانبه.

وبيّن بقوله ﴿الْقَهَّارُ﴾ أنه قد يخرج مخلوق على خالقه ويتمرد، فيحتاج الخالق إلى مساعدة الآخرين لتسخيره ليبقى تحت سلطانه، ولكن هذا لا يحدث مع الله ﷻ، فكل شيء في قبضته وتحت تصرفه، بل بحاجة إليه، حتى إن آلهتكم الباطلة أيضًا خاضعة لسلطانه ﷻ، ولا أحد منها يعدُّ خالقًا لأي شيء، فعبادتكم لها عبثٌ ولغوٌ، إذ لا دليل على وجودها.

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

أودية: جمع وادٍ. وَدَى الشيءُ وَدْيًا: سال. والوادي: منفرَجٌ بين جبال أو تلال أو آكام يكون منفذًا للسيل. وفي مفردات الراغب: الوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سُمِّيَ المُنفرج بين الجبلين واديًا (الأقرب).

سالت: سال الماء: جرى. السيل: الماء الكثير. والعرب تقول: سال بهم السيل وجاش بنا البحر.. أي وقعوا في أمر شديد ونحن في أشد منه. (الأقرب).

الزَبَد: ما يعلو الماء من الرغوة؛ الخَبَثُ. وقول الحريري: ثم أقبلنا على الحديث نخضّ زُبَدَه ونُلقي زَبَدَه.. كنى بالزُبَد وهي جمع زُبدةٍ عن خيار الكلام، وبالزَبَد عمّا لا خير فيه (الأقرب)

رابيًا: ربا يربو المال: زاد ونما. وربا فلانٌ الرابيةَ: علاها. وربا الفرسُ رَبْوًا: انتفخ من عدوٍ أو فزعٍ. وربا فلان السويقَ: صبَّ عليه الماء فانتفخ. وربا في حجره رَبْوًا ورُبُوًّا: نشأ. وكلّمتُه فما ربا برأسه أي لم يعبأ بي. والرابيةُ: ما ارتفع من الأرض. وأخذةً رابيةً: شديدة (الأقرب).

جُفاءً: الجُفاء: ما نفاه السيل إذا رمى به. قال ابن السِّكِّيت: وذهب الزَبَد جفاءً أي مدفوعًا عن مائه. والجفاء: الباطلُ تشبيهًا له بزبد القِدرِ الذي لا يُنتفع به (الأقرب).

التفسير: لقد وضّح هنا الموضوع السابق أيما توضيح، بضرب هذين المثالين، إذ قال: عندما يُنزل الله الماء من السماء فيجري في مختلف الوديان والطرق، يولّد بجريانه هكذا رغوةً كثيرة مشوبة بالأوساخ، حتى إن الرائي يتحير ويتساءل: هل كل هذه الأوساخ كانت موجودة في هذه الطرق. وتكون الرغوة كثيرة في البداية حتى يخيل للرائي أنه ليس هناك إلا الرغوة، ولكنها لا تلبث أن تنكمش تدريجيًا وتقل حتى لا يُرى إلا الماء في الأخير. فَمَثَلُ الحق والباطل كمثل الماء والرغوة التي تعلوه في الظاهر، بمعنى أنه عند بداية دعوى الأنبياء عندما يجد الناس أهلَ الباطل غالبين على أهل الحق يظنون خطأً أن الباطل في قوة وسيبقى غالبًا دائمًا، ولكن كما أن الزبد ينكمش

وينمحي في آخر المطاف وتكون الغلبة للماء، كذلك سيتغلب أهل الحق على أهل الباطل في آخر الأمر.

والمثال الآخر الذي ضربه القرآن هنا توضيحًا لهذا الموضوع هو مثال الذهب وغيره من المعادن، حيث يقول إن الصائغ عندما يقوم بِغَلْيِ الذهب مثلاً لصنع الحُلِيِّ فلا شكّ أن الرغوة تعلو حينذاك، ولكن الصائغ لا يحتفظ بالرغوة بل يرمي بها ويحتفظ بما يبقى بعدها من ذهب خالص نافع.

فبيّن بذلك للكفار: لا جرم أنكم تعلون الآن على أهل الحق، كما تعلو الرغوة على الذهب، وتحجبون ذهب الإسلام الخالص عن أعين الناس، ولكنا عندما نرسل رياح النصرة ستذهب ريحكم وتَمَّحون كما يَمَّحِي الزبد، ولن يكون شيءٌ غالبًا إلا الإسلام، ولن يقبل الناس إلا تعليم المصطفى ﷺ.

أو أن يكون هذا المثال عامًا فلا يخصّ المؤمنين والكافرين فقط، بل المقصود منه البيان أن الله تعالى قد خلق فطرة الإنسان طاهرة نقية، ولكن الإنسان يلطخها بأوساخ العادات والتقاليد الفاسدة الخاطئة فيفسدها. فيبعث الله رسله لإثارة ما في الفطرة البشرية من ملكات وقدرات، فتَحدث بمجيئهم ثورةٌ وهيجان في طبائع الناس كالذي يكون في المعدن المغلي أو السيل المنهمر، فتصحو في الناس فطرتهم الصحيحة النقية من ناحية، ومن ناحية أخرى يثور فيهم حب العادات والتقاليد، فيُصبح كل واحد منهم خليطًا من المشاعر النقية الصافية والتقاليد الفاسدة الخاطئة، ويحمل لبعض الفترة هذه المشاعر ذات التيارين المتباينين. فإذا كان ذا فكر نقي خالص استطاع التخلص من أغلال العادات الخاطئة، أما إذا لم يكن صادقًا في سعيه عادت مشاعره النقية إلى نفس الخمود والبرودة التي كانت مستولية عليه من قبل، فيختلط زبد التقاليد بذهب الفطرة النقية، فتصير مشوبة غير صافية مرة أخرى.

وبيّن بقوله تعالى ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أن انتشار التعاليم السماوية يتم وفق حالة الطبائع البشرية.

كما أن الآية تشير إلى أن القرآن الكريم سوف يفرق بين الحق والباطل، ويميز الخير من الشر، وحينما ينكشف على الناس الفارق بينهما جليًا سوف يطردون بأنفسهم الشر بعيدًا مؤْثِرين الحق على الباطل. فمن كان أصحَّ قلبًا وأوسعَ ظَرْفًا كان أوفرَ حظًّا من بركات الإسلام.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

استجابوا: استجاب له ومنه: قبل دعاءه (الأقرب).

الحسنى: ضدُّ السُوءَى؛ العاقبةُ الحسنة؛ الظفرُ (الأقرب).

افتدَوا: فداه وافتداه: استنقذه بمال؛ وقيل أعطى شيئًا فأنقذه. وافتدت المرأة نفسها من زوجها: أعطته مالاً حتى تخلّصت منه بالطلاق.(الأقرب)

جهنم: دار العقاب بعد الموت ممنوعة من الصرف، قال صاحب الكليّات: جهّنمُ قيل عجميةٌ (الأقرب).

ولكني لا أرضى بنسبة الكلمات العربية إلى لغات أخرى. فلا أراه رأيًا سليمًا، بل أرى أن (جهنم) كلمة عربية صيغت بحسب القواعد العربية، ولكن بما أنهم لم يجدوا لها الآن شاهدًا لذلك اعتبروها أعجمية الأصل. الحق أنها مشتقة من: جَهَنَ جُهُونًا أي قرب ودنا، أو من (جَهَمَ) والنون هنا زائدة، وأمثلةُ زيادة النون في اللغة العربية كثيرة. وجَهَمَ معناه: استقبله بوجه مكفهّر، وتجهَّمَه: استقبله بوجه كريه (الأقرب).

المِهاد : الفِراش؛ الأرض، وجمعه أمهدةٌ (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: إن الذين يلبّون نداء الله ﷻ ستكون عاقبتهم حسنة.. وسيفلحون في سعيهم، ويحظَون برؤية الله، وستُنار عقولهم. أما الذين لا يستجيبون لأوامر الله ولا يتبعون تعاليم القرآن سوف يحيطهم الخزي والهوان، وسوف تسوء حالتهم وتحل بهم النوائب والخطوب، بحيث سيتمنون إنقاذ أنفسهم مما هم فيه بأي طريق ولو بفداء الأرض وما فيها إن استطاعوا، لأن الله تعالى سيحاسبهم حسابًا عسيرًا مؤلمًا جدًا، وسيكون مصيرهم جهنم حيث الآلام والبكاء والعويل.

أما قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ فليس المراد منه أن حسابهم سيكون فيه ظلم وإجحاف، بل المراد أن نتائج أعمالهم ستكون سيئة وخيمة، ولن يقدروا على أن يقدموا الحساب على المواهب والقدرات التي أودعها الله فيهم للرقي فأضاعوها.

ووضّح بقوله تعالى ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أن جهنم – وإن كانت بمثابة المستشفى يبقى بها المرضى إلى أن يتماثلوا للشفاء من أمراضهم – ولكنها ستسبب لأهلها آلامًا و كروبًا شديدةً للغاية.

وباختصار، سيزداد المؤمن رقيًا وشرفًا، بينما سيستمر الكفار في التردّي والانحطاط. فيا أيها الكفار، إلامَ ستظلون مغمضي العيون عن الواقع، مصِّرين على إنكار رسولي؟ اعلموا أنه لا بدَّ لكم أن تتخلوا عن العصبية القومية وتقبلوا الحق الناصع.

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

يتذكَّر: تذكّرَ الشيءَ وذكره: حَفِظَه في ذهنه. وتذكّر ما كان نسيَ: فطِنَ له. وتذكّر الله: مجّده وسبّحه (الأقرب).فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾:

١) إنما العقلاء هم الذين يفهمون القول.

٢) إنما العقلاء هم الذين يحفظون القول.

٣) إنما العقلاء إذا أخطئوا تنبهوا فورًا وتذكروا أوامر الله تعالى.

التفسير: لقد بيّن في هذه الآية أن التعاليم الإسلامية السامية تحقق للناس الرقي بكل أنواعه، إذ من المحال لمن فَهِمها وانتفع بالعمل بها أن يكون مثل الأعمى، أي الذي ليس به علم ولا دراية بما في هذه التعاليم من منافع وفوائد.

القاعدة عند المقارنة بين شيئين هي أن نقيس الشيء الأول بالثاني. فمثلاً إذا أردنا التأكيد على الشيء الأول بأنه نافع، فقولنا: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني: هل يمكن أن يكون هذا ضارًا كما هو الثاني. أما إذا كان الشيء الأول سيئًا فالمراد من قولنا هذا: هل يمكن أن يكون هذا نافعًا كمثل الثاني.كذلك إذا قلنا: هل يستوي الأعمى والبصير فالمراد أن الأعمى لا يتمتع بالنعمة أو الراحة التي يتمتع بها البصير: أما إذا قلنا: هل يستوي البصير والأعمى؟ فالمراد: أن البصير لا يعاني كمعاناة الأعمى. إذن فقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ تأكيد بأن المسلمين لا يمكن أن يقعوا في الأضرار والخسائر التي يمكن أن يصاب بها الكفار.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ فقد بيّن فيه موضوعًا جديدًا، هو أن ما أشرنا إليه من قبل من مقارنة بين التعاليم الإسلامية الحقة وبين عقائد الكفار أو بين المسلمين والكفار، إنما يفهم هذه المقارنة وينتفع بها أولو الألباب .. أي الذين عندهم ملكات عقلية لفهم أمور الدين، أما الذين يشوهون هذه المَلَكات ويضيعونها فلن يَعُوا من هذه المقارنة شيئًا. فلكي يفهم الإنسان أمور الدين عليه أن يحافظ على الملكات العقلية ولا يدعها تتشوّه وتفسد بتأثير التقاليد الفاسدة.

وإنه لمما يؤسف له أن أكثر الناس يدفنون القدرات العقلية –هذه الجوهرة الثمينة– تحت غبار التقاليد والعواطف والأهواء، فيبقون بظاهرهم أناسًا، ولكنهم في باطنهم يصبحون حيوانات عجماء. فيا ليت أحدًا يتدبر كلمة الحكمة هذه وينتفع بها.

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

عَهْد: العَهدُ: الوصيّةُ؛ المَوثِقُ؛ اليمينُ يحلفُ بها الرجل؛ الذي يكتبه ولي الأمر للولاة إيذانًا بتوليتهم (الأقرب).

التفسير: لقد وهب الله تعالى للناس كافةً القوى العقلية، ولكنهم لا ينتفعون بها عمومًا، بل يشوّهونها بتعطيلها وعدم استخدامها، ومع ذلك يدّعون أنهم أهل ذكاء ودهاء، ولذلك شرع الله الآن في بيان علامات أولي الألباب، لكي يعرف الإنسان هذه الجوهرة الخفية بعلاماتها.

وأُولى هذه العلامات أنهم يدركون لُبَّ الأمر وحقيقته دون الإصرار على التمسك بالقشور وحدها، محاولين أن يفوا بالوعد الذي عقدوه مع الله تعالى. وذلك أن من واجب العقل أن يميّز بين الخير والشر ويختار الأفضل، ويرفض الذي هو أدنى. وبما أن أولي الألباب هؤلاء يدركون أن كل بركة وخير يكمن في وفائهم بما عاهدوا الله عليه، فلذلك يبذلون قصارى جهدهم للوفاء بهذا العهد، ساعين أن يجعلوا كل ما سواه من أمور في حياتهم خاضعًا لهذا العهد مع الله، فإذا توافق هذا الأمر مع هذا العهد عملوا به، وإلا تجنبوه، ولا يدَعون أحدًا ينقض هذا العهد.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

يَصِلون: وَصَلَ الشيءَ بالشيءِ: لَأَمَهُ وجمعه؛ ضدُّ فَصَلَهُ (الأقرب).

يخشون: الخَشيةُ: خَوفٌ يشوبه تعظيمٌ وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما لا يُخشى منه، ولذلك خُصّ العلماء بها في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (المفردات). فالمراد من قوله تعالى ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أنهم يخافونه خوفًا فيه توقير وتعظيم، وهم يعرفون سبب هذا الخوف.

التفسير: والعلامة الثانية لهؤلاء العقلاء، أنهم بعد الوفاء بعهدهم مع الله وبعد إنشاء العلاقة الشخصية معه ﷻ، ينشئون صلتهم بمن أمرهم الله بالاتصال به بحسب درجته، بدءًا من الملائكة والرسل والخلفاء والأولياء والأبرار، ومرورًا بالعاملين على النظام القومي والأقارب والمحسنين والجيران والفقراء والمساكين وعامة أهل البلد والمسافرين والإنسانية جمعاء، حتى الحيوان الذي يستعينون به في متطلبات الحياة بل وغيره مما لا يستعينون به من بهيمة أو طير أو وحشٍ أو حشرة أو نبات أو جماد.

فكأنه تعالى عندما ذكر هذه العلامة لهم قد حثّنا على الشفقة على المخلوقات عامةً، وعلّمنا كيفية الأخذ بالأسباب المادية حيث وضّح أنه ليس العاقل من يحاول البحث عن الله تعالى عن طريق الخلق، وإنما العاقل من يصل إلى الله ثم يعود إلى خلقه بالعطف والحنان كما أمره الله تعالى، أي يكون حبه للخلق نابعًا من حبه لله تعالى، وليس العكس. وإلى ذلك تشير الآية القرآنية التي جاءت وصفًا للنبي ﷺ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩-١٠). يعني أن محمدًا ﷺ صعد واقترب أولاً من الله تعالى، ثم هبط بأمر الله من هذا المقام، ليشمل الخلق برحمته

وحنانه، وقدَّم للعالم أسوة حسنة في الشفقة على خلق الله تعالى، وصار وسيلة بين الخالق وخلقه، كمثل طَرَفَي وتر القوس حيث يكون أحدهما على جانب والآخر على جانب آخر.

والآية بيان لطيف للجهود الجبارة الجليلة التي بذلها الرسول ﷺ لإيصال الخلق بالخالق ﷻ، ولكني لست بصدد تفسير هذه الآية، ولذلك تركت الأمور التفصيلية جانبًا مكتفيًا بذكر النتيجة فقط.

وباختصار فإن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ يبين أن أولي الألباب يبلغون الذروة والكمال في طاعة الله وحبه، ثم بأمر منه ﷻ يتجهون إلى الخلق ويُنشئون معهم علاقة الأخوة والمودة والإحسان.

والعلامة الثالثة هي﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. وقد سبق أن بينت في شرح الكلمات أن الخَشية هي خوف الإنسان من ضياع شيء غالٍ وثمين يعرف قدره وقيمته. فهي ليست كخوفنا من وحش كاسر، وإنما المقصود منها اليقين بأن المَخوف شيء عظيم القدر غالي الثمن، وحرمان الإنسان منه بسبب غفلته وتهاونه يمثّل خسارة فادحة. إن الإنسان حينما يحوز على مقام الوصال والقرب من الله تعالى، يدرك أن هذا هو مقام الراحة الحقيقية والفضل الأصيل، فلا يستطيع حتى أن يتصور ضياعه من يده. فلا ينفك ساعيًا للحفاظ عليه، ويحاول جاهدًا ألا يقع في غفلة تحرمه من قرب الله ورضوانه.

والشق الآخر من علامتهم الثالثة هي أنهم ﴿يَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ أي أنهم إذا كانوا يحافظون دومًا على ما تيسر لهم من الحظوة لدى الله، فإنهم يخافون أيضًا أن يقصِّروا فيما أحرزوه من درجة سامية في مجال الشفقة على خلق الله فيستوجبوا سخطه ﷻ.

لقد بيّن من قبل عند ذكر العلامتين الأولى والثانية أن الوصال بالله هو الأصل، وأن الشفقة على خلقه تكون النتيجة لهذا الوصال. ولذلك استخدم القرآن كلمةَ

الخَشية عند الحديث عن التقصير في الوصال بالخالق، وكلمةَ الحزن عند الحديث عن الإهمال بالخلق، وهذا يكشف أن الأول هو المقصود بالذات.

وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

صبروا: الصبرُ: تركُ الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله، فإذا دعا اللهَ العبدُ في كشف الضر عنه لا يُقدَح في صبره. وقال في الكليات: الصبرُ في المصيبة، أما في المحاربة فشجاعةٌ. وصبرَ الرجلُ على الأمر: نقيضُ جزِع.. أي جرُؤَ وشجُع وتجلّد. وصبر عن الشيء: أمسكَ. وصبرَ الدّابةَ: حبسها بلا علفٍ. وصبرتُ نفسي على كذا: حبستها، وتقول: صبرت على ما أكره وصبرت عمّا أُحبّ. (الأقرب)

فالصبر معناه: ١- تجنبُ الجزع والفزع عند الخطوب، ٢- الامتناع عن الشيء وكبح النفس عن الرذائل والمعاصي، ٣- المثابرة على فعل الحسنات.

يدرءون: دَرَأَه: دفعه؛ وقيل: دفعه شديدًا. (الأقرب)

عُقبى: العُقبى: جزاءُ الأمر؛ آخرُ كل شيء؛ الآخرة. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر هنا أربع علامات أخرى لأولي الألباب. فعلامتهم الرابعة أنهم صابرون.. أي أنهم يجتنبون الجزع والفزع عند المحن، مثابرين على فعل الخيرات، كابحين أنفسهم عن إتباع رذائل الشهوات، ولا يرون الكفاية في ذلك بل يطهِّرون نياتِهم، فيأتون هذه الأعمالَ ابتغاءَ مرضاةِ ربِّهم، وليس لمصلحة شخصية أو منفعة

قومية، أو بسبب ضعف طبيعي فيهم من عجزٍ أو جبن بمعنى أنهم إذا كانوا لا ينتقمون من المعتدي رغم مقدرتهم على الانتقام منه فذلك امتثالاً لأمر الله الذي يريدون كسب رضوانه.

لقد صرّح سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام وقال: ليس العَفيف من يتجنب المعصية لعدم قدرته على ارتكابها، وإنما العفيف من يقدر على ارتكابها ومع ذلك يرتدع عنها. فمثلاً هناك أحد لا يستطيع الخروج من بيته ليلاً بسبب الجبن فكيف يمكن لهذا الجبان أن يقول: انظروا أنا لا أقوم بالسرقة أو قطع الطرق على الناس. أو كيف يمكن لشخص نحيفٍ ضعيفِ البنية لا يستطيعُ أن يرد على أحد إذا ضربه أن يدعي أنه صابرٌ، ولا ينتقم.كلا إنه ليس صابرًا، بل هو عديم القدرة على الانتقام. ولكن الذي لا ينتقم من المعتدي عليه ابتغاءَ مرضاة الله فإنه يستحق بكل جدارة أن يُدعى صابرًا. (فلسفة تعاليم الإسلام، الخزائن الروحانية ج١٠ ص٣٤٠).

وأما علامتهم الخامسة فهي ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ﴾ أي أنهم يؤدون الصلاة مواظبين عليها، مراعين شروطها كلها. بمعنى أن علاقتهم بالله تعالى تتسم بصفة المثابرة والدوام، فلا يتخللها انقطاع ولا فتور.

وبيّن علامتهم السادسة بقوله تعالى ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾، فإنهم ينفقون مما آتاهم الله على الفقراء خُفيةً، كي لا يعتبره المتلقّي منّةً عليه. كما ينفقون أموالهم علانية حثًا للآخرين لِيَتَأَسَّوا بأسوتهم، ويقوموا بإخراج الصدقات وفعل الخير لوجه الله تعالى.

وأما علامتهم السابعة فأشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، وقد علّمنا الله بذلك عدة طرق لدفع السيئة:

الأولى: أن هؤلاء يعملون أعمالاً حسنة ليتأسى الآخرون بأسوتهم ويكفوا عن المساوئ، وكأنهم في محاولتهم لقمع السيئات من المجتمع لا يكتفون بالوعظ باللسان وحده، بل يقدمون للآخرين نموذجًا عمليًا، لأن نصح الإنسان وحده أقل وقعًا وتأثيرًا

من أن يعمل بما يدعو إليه الناس.

الثانية: أنهم يدعون الآخرين إلى فعل الخيرات، وهكذا تنمحي المساوئ من المجتمع تلقائيًا، بمعنى أنهم لا يركّزون على الحديث عن الفحشاء والمنكر، بقدر ما يرَكِّزون على بيان الصالحات إبرازًا لمحاسنها ونتائجها، وهكذا يصرفون الأذهان عن التفكير في السيئة.

الثالثة: أنهم يقضون على السيئة بالحسنى، أي بما يتلاءم مع الموقف، بمعنى أنهم لا يصرّون على الانتقام ومعاقبة المعتدي في كل حال، كما تأمر التوراة (التثنية ١٩:٢٠)، ولا يركّزون على جانب العفو والرفق بالظالم دومًا، ولا يدعون إلى إدارة الخد الأيسر بعد أن لطمهم أحد على الأيمن كما ينصح الإنجيل (متى٥:٣٩)، بل يجعلون القضاء على الشر نُصْبَ أعينهم دائمًا، فيسلكون الطريق الأمثل لذلك، فيعاقبون المعتدي إذا كان العقاب سيردعه عن العدوان، أو يعفون عنه إذا كان الرفق والعفو يصلحه، بل إذا اقتضى الأمر فإنهم يحسنون إليه ويصنعون به المعروف إلى جانب العفو عنه.

الرابعة: أنهم لا يقاومون الشر بطرق شريرة غير مشروعة، وإنما يقاومونه متمسكين بمبادئ الحق والعدل.

ثم قال ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾. إن كلمة (العقبى) تعني عمومًا العاقبة المحمودة، فكأن الله تعالى يعلن هنا أن من كان مصيره سيئًا فكأنه لا عقبى له في الواقع. و(الدار) تعني هنا الجنة، لأنها هي الدار الحقيقية، أما الدنيا فهي مقام مؤقت عابر. فالمراد من قوله تعالى ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أنهم سوف يَلْقَون في الآخرة مصيرًا حسنًا.

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

جنّات: جمعُ جنة. أصل الجَنّ سَترُ الشيء. يقال: جَنَّه الليلُ: سَتَره. والجنة: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. وقد تُسمى الأشجار الساترة جنّةً. وسُميّت الجنة إما تشبيهًا بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بَوْن، وإما لسَتْرِه تعالى نعمَها عنّا المشار إليها بقوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (المفردات)

عَدْن: عَدَن بالمكان عَدْنًا: أقام به. عدَن البلدَ: توطّنهُ؛ قيل: ومنه جنّات عدْن أي جنّات إقامة لمكان الخلود. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من قوله ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، والمراد أن أولي الألباب هؤلاء سيرثون جنات خالدة.

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ...﴾.. أي أن الصلحاء من آبائهم وأزواجهم وأولادهم أيضًا سيرثون معهم هذه الجنات.

تتحدث هذه الآية عن إحدى الحقائق العظيمة التي ينفرد القرآن ببيانها بين سائر الكتب السماوية، ألا وهي أنه ما من خير وشر يصيب الإنسان إلا ويشاركه فيه الآخرون بطريق أو بآخر. الواقع أن نجاح التاجر في تجارته أو المزارع في زراعته يتوقف على التعاون بين آلاف الناس الآخرين، سواء بقصد منهم أم بدون قصد. ومن أجل ذلك فرض الشرع الإسلامي على أموال الناس الزكاة التي تؤخذ منهم وتُردّ على غيرهم من ذوي الحاجة كحق ثابت لهم. والحال نفسه بالنسبة للأمور الأخرى. خذوا مثلاً أحد الدعاة الذي يقوم بواجب التبليغ خارج وطنه، بعيدًا عن الأهل. فالحق أن زوجته أيضًا تساهم في مهمته التبليغيّة، لأنها تسهر في غيابه على رعاية بيته وتربية أولاده، مما يسهّل عليه أداء واجب الدعوة. كما أن والديه أيضًا يسهمان في إنجازاته، إذ لولا تربيتهما الحسنة لما توجه إلى مجال خدمة الدين، بل إن أولاده أيضًا مساهمون في تبليغه، لأنهم يهيئون له راحة البال ولا يضايقونه. فبما أنه يتمكن من أداء هذه الأعمال الصالحة بمساعدة أقاربه وتعاونهم.. فقد جعل الله لهم نصيبًا فيما يُعطَى هذا

الإنسان الصالح من أجر وثواب، كما أن أحدًا إذا تبوّأ درجةً عالية في الجنة، فإن الله تعالى سوف يرفع درجات أقاربه في الجنة ليسكنوا معه شريطة أن يكونوا من الناجين.

مع العلم أن كلمة ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ هنا لا تعني الزوج والزوجة فقط، بل جاءت بمعناها الواسع أي أصحابهم وزملاؤهم ممن كانوا مساعدين لهم في صالح أعمالهم. من هنا نفهم: لماذا لا تنال المرأة درجة النبوة؟ فالآية تقول إن الله تعالى سوف يسكن زوجة النبي أيضًا في المقام الذي يتبوّأه النبي، وكأن المرأة وإن كانت لا تتولى منصب النبوة في هذه الدنيا، إلا أن الله تعالى سوف يشركها في نفس النعم التي سينعم بها على نبيه.

كان رسول الله ﷺ فردًا واحدًا، وسيشرك معه في نعمه في الآخرة إحدى عشرة زوجة. ثم إن الصدّيقين هم أزواج الأنبياء أي زملاؤهم، و لم يحرم الله تعالى النسوة من درجة الصدّيقية، فاللاتي يكن حائزات على درجة الصدّيقيّة سوف يسكنهن الله تعالى حيث يكون النبي ﷺ، مثل جميع الصديقين الرجال، لأنهم وإياهن جميعًا زملاء للنبي كونهم حائزين على درجة الصدّيقية.

ثم قال ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، وهذا لا يعني أن الجنة تغطي مساحة شاسعة أو أن لها أبوابًا كثيرة، بل المراد أن فاضل الأخلاق وصالح الأعمال التي تسببت في دخولهم الجنة سوف تتمثل لهم في الآخرة كأبواب عديدة للجنة يدخلون من أيها شاءوا.

سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٥﴾

التفسير: أي أن الملائكة سوف يزورونهم قادمين من كل باب قائلين لهم: "سلام عليكم" بمعنى أنهم سوف يخبرونهم أنكم بسبب كذا من الأعمال دخلتم من هذا

الباب، وكذا من الأخلاق يتمثل لكم بصورة ذلك الباب وهكذا. ويسلمون عليهم تذكيرًا لهم بأنكم سوف تتمتعون الآن بسلام شامل جزاءً على حسناتكم، وكما أنكم أتيتم الحسنات من كل نوع، كذلك تنعمون بالسلام من كل خطر.

وأما قولهم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ ففيه دلالة على دوام هذا السلام. وبقولهم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بينوا لأهل الجنة سبب دوام هذا السلام، حيث قالوا: بما أنكم داومتم على فعل الحسنات وثابرتم عليها رغم العوائق فجزاؤكم الآن أن تنعموا بسلام دائم.

وتمثل الآية ردًا على قول الآريين الهندوس بأَنَّهُ ما دام عمل الإنسان محدودًا فكيف ينال عليه جزاءً غير محدود في شكل الجنة الأبدية.(ستيارث بركاش باب ٩ ص٣١٧). ذلك أن الله تعالى يقول هنا لأهل الجنة: إنكم لم تبرحوا متمسكين بالخير طوال الحياة، مؤدّين واجباتكم بكل وفاء وإخلاص، ثابتين على الحق، مداومين على الخير ما استطعتم إليه سبيلا، إلى أن حال دونكم الموت الذي لم يكن أمره بيدكم، فمن واجبي الآن أن أهب لكم فلاحًا أبديًا وسلامًا دائمًا.

كما تخبر الآية أن الذي يصيبه الهلع عند حلول المحن والاختبارات البسيطة ولا يبقى على الحق ثابتًا فإنه لا يستحق الجنة، وإنما يستحقها من لا يفزع لدى الابتلاءات، ولا يقطع صلته مع الله تعالى أبدًا، مثابرًا على فعل الخيرات مداوما عليها.

يقول الجَكْرالَويوُّن* معترضين على المسلمين الآخرين بقولهم إنّ ما ورد في القرآن هو "سلام عليكم" فلماذا تقولون عند إلقاء التحية: "السلام عليكم"؟

والجواب هو أننا حينما نتبادل تحية السلام فلا نعني سلامًا عاديًا، وإنما نقصد سلامًا خاصًا ذُكر في هذه الآية وفي أماكن أخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى:﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر :٧٤)، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا

* فرقة إسلامية في الهند لا تأخذ بالسنة النبوية ولا بالحديث الشريف قائلة: كفانا ما ورد في القرآن الكريم فقط. (الناشر)

فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۞ سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس :٥٨-٥٩). فإننا نقصد من هذه الآية أن نقول لصاحبنا: وفّقك الله بدخول الجنة، وشنّفت الملائكة أذنيك بتحية السلام وهم يدخلون عليك من كل باب فيها كما وَعَدَ الله المؤمنين.

فهناك بونٌ شاسع بين أن يقول أحد (سلام عليكم) وبين هذا الدعاء الرائع الجميل. فما دمنا نقصد بتحيتنا ذلك السلام الخاص، فعلينا أن نقول بحسب قواعد العربية أيضًا: "السلام عليكم" بدلا من "سلام عليكم".

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

٢٦

شرح الكلمات:

اللّعنةُ: لَعَنَهُ لعنًا: طرده وأبعده من الخير وأخزاه وسبّه. واللّعنةُ: اسمٌ من اللَّعن؛ العذابُ (الأقرب)

التفسير: لقد أشار بقوله ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ...﴾ إلى أن هؤلاء الظالمين لا يمتنعون عن فعل الخيرات فقط، بل إنهم يرتكبون السيئات أيضًا، ويقطعون صلتهم بمن أمر الله بإنشاء الصلة معهم. فبعضهم يخلّ بالنظام القومي، والآخر يعارض النبي بدلاً من أن ينشئ معه علاقات التقرب والوداد، والثالث يتهاون في الشفقة على خلق الله، والرابع يُعرض عن ربه.

أما قوله تعالى ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ فقد جاء به إزاء قوله ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ ليبين أنهم إلى جانب قطع الصلة بهؤلاء يبدءون في ظلمهم، ولا

يكتفون بالإعراض عنهم فحسب، بل يناصبونهم العداء.

ثم قال ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي حيث إنهم قطعوا صلتهم بالله تعالى، فإن الله تعالى أيضًا سيطردهم من حضرته، ولن يَحْظَوا بقربه ﷻ. مع العلم أن كلمة اللعنة قد جاءت هنا بمعنى الإبعاد والطرد، و لم ترد هنا كسَبّ وشتيمة، بل جاءت لبيان حقيقة هامّة، ألا وهي أن هؤلاء ما داموا قد قطعوا صلتهم مع الله، فكيف يمكن لهم بعد ذلك أن يكونوا من المقربين لديه ﷻ.

اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا مَتَاعٌ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

يقدرُ: قدَر اللهُ عليه الأمرَ: قضى وحكم به عليه. قدَر عليه الرزقَ: قَسَمَه؛ ضيّقه. وقدَر على الشيء: جمعه وأمسكه. (الأقرب)

التفسير: أي يقول هؤلاء الكفار: فلنتمتّع بنعم هذه الدنيا ومُتعها، لأن الآخرة أمر موهوم. إذ ليس هناك ضمان أن نحظى بنعم الآخرة إذا صدّقنا محمدًا، ولكنا سنخسر بالتأكيد ما بأيدينا الآن. وفي لغتنا البنجابية أيضًا يقولون: هذه الدنيا حلوة لذيذة فلماذا نكدّر صفوَنا من أجل الآخرة التي لم يرها أحد؟

إن الله تعالى يرفض هذه الوسوسة الشيطانية ويقول: إن النعم المادية من مُلك أو مال أو رقيّ وازدهار ليست أيضًا في قبضتكم بل هي تحت تصرّفنا وسلطاننا نحن، فإذا قررنا أن ننتزعها منكم ونعطيها محمدًا وأصحابَه، فلن تستطيعوا الحيلولة دون مشيئتنا. بل سبق أن حذّرناكم ونَبَّأنا أنها سوف تؤخذ منكم. فالحق أن تصديقكم محمدًا ﷺ

لن يشكّل أي خطر عليكم ولن يصيبكم بأي خسارة دنيوية، بل هناك أمل في أن تحافظوا على هذه المنافع المادية بتصديقكم إياه. وها قد بدأت الآثار تؤيد نبأنا هذا، فانتبهوا وعُوْا.

ولنفرض أن تصديقكم محمدًا سوف يلحق بكم ضررًا ماديًا فمع هذا فإنها ليست صفقة خاسرة، لأن تعليمه يشمل المبادئ الخالدة التي لا تساوي النِعمُ المادية إزاءها شيئًا.

لقد بيّن بذلك أن التطور العقلي والفكري خير وأفضل من الرقي المادي، لأن الترقيات المادية تابعة للرقي العقلي والفكري دائمًا، شريطة أن لا يبقى الإنسان عاطلاً عن السعي والعمل، مكتفيًا بالرقي الفكري وحده، فيعطل قواه العملية ويدمّرها.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

يهدي: هداهُ الطريقَ وإليه وله: بيّنهُ له وعرّفه به. هدى فلانًا: تقدّمه. تقول: جاءت الخيلُ يهديها فرسٌ أشقر.. أي يتقدّمها. هداهُ اللهُ إلى الإيمان أي أرشده إليه. (الأقرب)

أناب: نابَ وأناب إليه: رجع مرةً بعد أخرى. أنابَ إلى الله: أقبلَ وتابَ. ونابَ فلانٌ: لزِمَ الطاعةَ. (الأقرب)

التفسير: لقد أنذرهم الله تعالى في الآية السابقة بأنه قادر على انتزاع ما في أيديهم من رزق ونعم، أما هنا فقد ذكر ردود فعلهم على هذا الإنذار، حيث لم يلبثوا أن

قالوا: حسنًا، فليُرنا الله آية قدرته وجبروته، وليترعْ هذا الرزق والمال من أيدينا. ثم يردّ الله ﷻ على مطالبتهم بالآية فيقول: لقد أنزلنا كثيرًا من الآيات، ولكنكم لا تريدون الانتفاع بها، وتصرّون على المطالبة بآية العذاب فقط، وكأن كل ما أنزلنا من قبل من آيات علمية وأخرى روحانية دالة على رحمتنا لا تساوي عندكم شيئًا، وكأنما الآية النافعة المرضية عندكم هي أن يحل بكم العذاب، مع أنه لا يبقى بعد حلول العذاب المدمّر أية فرصة للاهتداء، فكيف تنتفعون من آية العذاب إذن؟ فثبت أنكم تستوجبون الهلاك لكثرة المعاصي. أجل، لقد قررّنا هلاككم لأنكم لو كنتم صادقي النية في مطالبتكم بالآيات لانتفعتم من آيات الرحمة والهداية.

كان من المحتمل أن يعترض أحد على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء﴾ فيقول: وكأنما الله نفسه يُكره الناس على الضلال، فدحض هذه الوسوسة بقوله ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.. أي أنه تعالى لا يضل أحدًا ولا يهلكه دونما سبب، بل من سنته سبحانه وتعالى أن يهدي من ينيب ويميل إليه، ولا يهلك إلا الذي يتهرب منه مُعْرِضًا عن الهدْي السماوي.

فالآية تهدم مزاعم أولئك الذين عندما يقرءون في القرآن كلمة﴿يَشَاء﴾ منسوبة إلى الله تعالى، يقولون: إن معناها أن الله نفسه يريد إغواء الناس، فإنها صريحة في إعلانها بأنه تعالى لا يُكره أحدًا على الضلال، بل يضل -أو بتعبير آخر- يعدّ منحرفًا عن سبيله من لا يريد الاهتداء إليه ﷻ.

الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

تطمئن: اطمأن إلى كذا: سكن وآمَنَ له (الأقرب).

التفسير: يتمتع الإنسان في الدنيا بأنواع النعم، ويحقق الرقي في شتى المجالات، فيكسب مالاً وينال منصبًا، ويظفر بزوجة جميلة، ويُرزق ذرية طيبة، و يجد أصدقاء مخلصين، وينعم بتجارة رابحة، ويزداد علمًا وثقافة، ومع ذلك لا يجد طمأنينة القلب ولا سكينة البال، بل كلما تحققت له أمنية تولدت في قلبه أمنية أخرى تقيمه وتقعده، فلا يزال قلبه يلتاع ويحترق بالإحساس بأنه لم يظفر بضالته المنشودة. شأنه شأن الرضيع الذي ينفصل عن أمه، فكلما احتضنته امرأة يلتصق بثديها ظنًا منه أنها أمه، ولكنه لا يجد السكينة في حجرها، بل سرعان ما يتركها متجهًا إلى الأخرى باحثًا عن أمه الحقيقية. أو مثله كمثل الأم التي تفقد وليدها. فقد ورد في الحديث الشريف أن الرسول ﷺ رأى في إحدى الغزوات امرأة فقدت رضيعًا لها، فكانت تبحث عنه هنا وهناك. وكلما وجدت صبيًا احتضنته .. تلاطفه وتداعبه، ثم تركته في مكانه وتقدمت إلى غيره باحثةً عن ولدها المفقود، وفي الأخير وجدته فألصقته بصدرها، وجلست ترضعه باطمئنان وسكينة. فقال النبي ﷺ لأصحابه: لَله أفرحُ بالعبد إذا تاب إليه من هذه المرأة بولدها*. لقد لفت النبي ﷺ بذكر هذا الحادث الأنظار إلى عبرة أخرى، ولكن أود توجيه عنايتكم إلى جانب آخر من الصورة، وهو قلق المرأة واضطرابها قبل العثور على ولدها، ثم اطمئنانها بعد الظفر بضالتها المنشودة. وهذا هو حال كل إنسان، حيث لا يطمئن إلا بعد الحصول على غايته الحقيقية. فالذين يذكرون الله حقًا، يتم لهم الوصال به ﷻ. فلا يبقى لديهم أي اضطراب ولا حرقة ولا قلق، بل يزدادون كلَّ حين قربًا منه وبالتالي سكينة وطمأنينة. أما الذين يجرون

* أقرب الروايات إلى هذا المعنى هي: "عن عمر بن الخطاب قدِم على النبي ﷺ بسَبْيٍ فإذا امرأة من السبي قد تحلَّبَ ثديها بسقيٍ، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذتْه فألصقته على بطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحةً ولدَها في النار؟ قلنا: لا وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال: لَلهُ أرحم بعباده من هذه بولدها" (البخاري:كتاب الأدب) (الناشر)

وراء متع الدنيا الفانية فقط، فإنهم كلما حققوا رقيًا ماديًا كلما ازدادوا اضطرابًا والتياعًا.

فثبت بذلك أن غاية حياة الإنسان هي البحث عن الذات الإلهية، ولذلك نرى أنه حينما يظفر بالوصال مع الله وقربه، يعمر قلبه بالسكينة والطمأنينة. ولكن على النقيض من ذلك، ترون ما يعانيه الشخص الذي يجري وراء المادة من قلق واضطراب. خذوا مثلاً "راجات" الدويلات الهندية، فإنهم رغمَ كونهم محميين من قبل الحكومة الإنجليزية بالهند إلا أن الخوف على الحياة يستبد ببعضهم لدرجة أنهم لا يشربون الماء العادي خشية أن يسمّمه أحد، وإنما يستوردون المياه المختومة من إنجلترا، فتُفتح أمام أعينهم، فيشرب منها الآخرون قبل الراجا. ونفس الحال بالنسبة لطعامهم، حيث يُطبخ تحت رقابة صارمة، ويؤمر الطباخ بتناوله أولاً، ثم الطبيب، ثم الراجا نفسه. ومعنى ذلك أن هؤلاء -رغم كونهم ملوكًا- يعيشون في خطر وقلق دائمين. ولكن انظروا إلى نبينا محمد ﷺ، لقد كان محاصرًا بين الأعداء طوال الحياة، ومع ذلك عاش مطمئنًا هادئ البال قرير العين، غير خائف ولا قلقٍ على نفسه، حتى إذا دعاه العدو للطعام لبّى دعوته دون تردد ولا خوف. يذكر التاريخ أن امرأة يهودية حاولت مرة قتله ﷺ، فأعدَّت له الطعام ووضعت فيه السّم الزعاف القاتل. ولكن الله تعالى أخبره عن ذلك بالوحي قبل أن يتناوله، وهكذا نجَّاه من الموت (السيرة لابن هشام، "أمر خيبر")

لماذا كان مطمئنًا مرتاح البال إلى هذه الدرجة؟ ليس هناك أي سبب إلا أنه كان على صلة بالله الذي يعلم الغيب، ومن كان على صلة بالله آتاه الله نصيبًا من غَيبِه بقدر الحاجة، فيعيش مطمئنًا.

وهناك سبب روحاني آخر وراء اطمئنان الإنسان المتقدم روحانيًا ووراء قلق المرء المتقدم ماديًا. ذلك أن الشخص كلما أحرز تقدمًا ماديًا وازداد مالاً كلما كان هناك احتمال أكبر لأن يتسرب المال الحرام إلى أمواله مما سلبه من أموال الآخرين. ولكن

ليس الأمر هكذا في الأمور الروحانية. فمهما أحرز الإنسان تقدمًا روحانيًا، فلن يأخذ إلا نصيبه دون أن يبخس الآخرين حقوقَهم ولذلك يعيش مطمئنًا مرتاح البال دون أن يؤنِّبه ضميره بمعصية الله وهضم حقوق الآخرين. وإلى ذلك تشير الآية وتقول بأن الجنة التي يدخلها المؤمن ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (آل عمران:١٣٤). أي أن مساحة الجنة -مثل السماوات والأرض- مشترَكة بين المؤمنين كافة على سواء، ولكنّ كلاً منهم سوف ينتفع بها وفق ملكاته وقواه الروحانية.

الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

طوبى: مصدر بمعنى الطيّب، أصله طُيْبَى قُلبت الياء واوًا. وطوبى جمع طِيبة؛ تأنيثُ الأطيب؛ الغبطةُ؛ السعادةُ والحسنى؛ الخيرُ (الأقرب).

مآب: المآب: المرجعُ؛ المُنقَلَبُ (الأقرب).

التفسير: أي سوف يظفر المؤمن بالخير والسعادة وبما لا يخطر على البال من النِعَم، وستكون عاقبته محمودة حسنة جدًا، والبديهي أن من كانت عاقبته محمودة فهو الناجح في الحقيقة.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إلا هُوَ عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

متابِ: تابَ إلى الله من ذنبه متابًا. رجع عن المعصية (الأقرب). وأصلُ (متابِ) متابي.

التفسير: لقد ذكر هنا أمرًا هو من اللطافة والشفافية بمكان؛ حيث قال للكفار إنكم تطالبوننا بالعذاب، ونحن نؤخره عنكم بسبب رحمانيتنا، ولكنكم -رغم ذلك- تكفرون بكون الله رحمانًا، والواقع أنه لولا أنني رحمن لأهلكتكم منذ أمد بعيد لسوء أعمالكم. هل هناك أي عمل صالح لكم تظنون أنه يحول دون نزول العذاب عليكم؟ كلا، وإنما هي رحمانيتنا التي تقيكم من العذاب.

وبيّن بقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ...﴾ أن غايتنا من بعثك هي أن تُخرج من القوم أهل السكينة والطمأنينة والعاقبة الحسنة كأولئك الذين سبق ذكرهم، ممن يحرزون الدرجات العُلى في الروحانية ويتحلون بالأخلاق الحسنة الفاضلة.

وفي قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ إشارة إلى أنه سيقول لك القوم: من المحال أن تحوِّل قومًا جاهلين كالعرب إلى أُناس ربانيين متحلين بهذه الأخلاق السامية. فقل لهم: هذا ليس من عملي، إنما هذا بيد الله الذي يتولى تربيتي، فعليه كامل ثقتي وإليه ضراعتي وابتهالي، ليحقق بقدرته الهدف الذي من أجله بعثني.

فالآية تذكرنا أن الوسيلة الحقيقية لإصلاح القوم إنما هي التوكل على الله والدعاء والابتهال إليه ﷻ. فالذين يسعون لإصلاح قلوب الناس بالأسباب الظاهرة لا يفلحون في مساعيهم أبدًا، لأن الوسائل الظاهرة إنما تصلح الظاهر فقط، ولا تقدر على تسخير القلوب وعمرانها بالإيمان والاطمئنان. ومن أجل ذلك نجد الغرب قد فشل رغم بذل جهود جبارة في تقديم نموذج عالي المستوى في مجال الأخلاق

والروحانية،كالذي قدَّمه الرسول الكريم ﷺ في شكل أصحابه، رغم افتقاره للأسباب الظاهرة.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

سيِّرتْ: سَيَّرَه: جعله سائرًا. سيّر الجُلَّ عن ظهرِ الدابة: ألقاه. سيّر المثلَ: جعله يسير بين الناس. سيّره من بلده: أخرجه وأجلاه (الأقرب)

الجبال: جمعُ الجبل وهو: كلُّ وَتَدٍ للأرض عظُمَ وطال؛ خلافُ السهل؛ سيدُ القوم وعالمهم، يقال: فلانٌ جبلُ قومه (الأقرب).

فقوله تعالى ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ يعني ١) حُرِّكت بالقرآن الجبال من مكانها، ٢) قُضيَ به على أسياد القوم وعلمائهم، ٣) أُطيح به الملوك من عروشهم، ٤) ويعبَّر بالجبل في الروحانيات عن العقبات والعراقيل، فالمراد: أُزيلت به المشاكل والعوائق.

قُطِّعت: قَطَّعه: قَطَعَه قطعةً قطعةً، شدِّد للتكثير. قطَّع الله عليه العذابَ: لوَّنه وجزّأه (الأقرب)

ييأس: يَئِسَ: قَنَطَ؛ عَلِم (الأقرب)

قارعةٌ: القارعةُ: القيامةُ؛ الداهيةُ؛ يقال: قَرَعَتهم قوارعُ الدهرِ: أصابتهم نوازلُه الشديدة؛ النكبةُ المهلكة؛ سريّةٌ لنبي المسلمين. قارعةُ الطريق: أعلاه أو معظمه

(الأقرب)

تَحُلُّ: حلّ المكانَ وحلّ به: نزلَ به. حلّ به في المكان: أحلّه إياه. حلّ الرجلُ: عدا (الأقرب)

التفسير: أي أنه ﷻ لو نزّل لهم قرآنًا مُتَّصِفًا بهذه الصفات لما آمنوا أيضًا.

ولا يعني هذا أن القرآن الكريم لا يتّسم بهذه المزايا وإنما هذا بيان لِشقاء قلوب الكفار وتعنتهم. والمراد أنهم سوف يشاهدون ظهور هذه المزايا والتأثيرات من القرآن الكريم، ولكنهم لن يؤمنوا به أيضًا. ونظير هذا الأسلوب هو الحديث النبوي الشريف: "لو كان الإيمان معلقًا بالثريا لناله رجلٌ من فارس" (البخاري، التفسير). فلا يعني هذا أن الإيمان لن يرتفع إلى الثريا، وبالتالي لن يتزل به رجل من فارس، بل المراد أنه سيأتي زمن سوف يرتفع فيه الإيمان إلى السماء حتمًا، ليعود به رجلٌ فارسيٌّ إلى أهل الأرض مرة أخرى.

وفيما يلي بيان هذه الميزات القرآنية:

الميزة الأولى: هي ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾. لو أخذنا (الجبال) بمدلولها الظاهري، فالمراد أن القرآن الكريم يتضمن أنباءً عن الزلازل العنيفة التي تنسف قمم الجبال. وبالفعل هناك أنباء عظيمة في القرآن عن تقلبات وتغيرات في العالم كما تشير إليها سورة الزّلزلة.

أما إذا اعتبرنا كلمة (الجبال) استعارةً عن العقبات والمصائب، فالمراد أن القرآن سوف يساعد على إزالة العقبات الكأداء عن طريق تقدم الإنسانية. ويتّسم القرآن الكريم بهذه الميزة أيضًا، حيث يقدّم حلولاً منقطعة النظير لما يهدّد الإنسانية من مشاكل علمية وخُلقية وروحانية واجتماعية واقتصادية وسياسية وقومية.

ولا بأس أيضًا لو أخذنا الجبال بمعنى أسياد القوم وعلمائهم. فالقرآن تسبب في القضاء على سيادة الحكام والعلماء السابقين، وغيّر مفهوم السيادة كليةً، وأتى بالخلافة بدلاً من الملكيّة. كما بدّل مفهوم العلم، إذ عارض "العلم" السائد قبله

وأسس العلم على أسس الخبرة والمعاينة والاطلاع على خواص الأشياء. وكل القرآن زاخر بهذا الموضوع حيث يدعو مرارًا وتكرارًا إلى إعمال الفكر واستخدام العقل بدلاً من إتباع الأوهام والظنون، فيحث على مشاهدة الأجرام الفلكية ومراقبة التغيرات الجوية ودراسة الجبال والأنهار، وعلى السير في أرض الله ومعرفة خواص الأشياء للاطلاع على حقيقتها، لأنه يقول: إننا قد خلقنا جميع هذه الأشياء من أجلكم ولمنفعتكم.

وباختصار، فقد غيّر القرآن مفهوم السياسة والعلم كليةً، وقدّم حولهما وجهة نظر جديدة، وكأنما خلق عالمًا جديدًا للعلم والمعرفة.

الميزة الثانية: هي ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾. وقطعُ الأرض يُستخدم بمعنى طيّ المسافة بسرعة، فالمراد أن الله تعالى سوف يكتب للقرآن انتشارًا سريعًا في العالم كلّه. كما أن قطع الأرض يعني أيضًا قطع أراضي الأعداء وضمها إلى أراضي المسلمين. وكلا الأمرين قد تحقق بالقرآن الكريم، حيث انتشر هذا الكتاب في الدنيا كلّها بسرعة فائقة، وشحن أتباعه بحماس وإخلاص لله تعالى، بحيث إنهم خرجوا إلى جميع أنحاء الدنيا حاملين نورَ القرآن الكريم، وتغلبوا على أهلها خلال جيل واحد. كما أن الأرض تلو الأرض من أراضي العدو قد قُطِّعت وضُمَّت إلى أراضي المسلمين وفق هذه الأنباء القرآنية.

الميزة الثالثة: هي ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ ويمكن تفسيرها بمفهومين:

الأول: أن يجعل الله الموتى يتكلمون شاهدين على صدقه. وحيث إن الأموات لا يرجعون إلى هذه الدنيا بموجب نصِّ القرآن الكريم، فالمرادُ أنّ الموتى سيزورون الناس في الرؤى والكشوف ليخبروهم بصدق القرآن. ونعلم بالخبرة أن الناس يقبلون شهادة آبائهم كثيرًا، لأجل ذلك نجد اتجاهًا متزايدًا في أوروبا إلى "الأرواحيَّة" وهي مذهب يدّعي أصحابه بمناجاة أرواح الموتى فالله تعالى يقول هنا: إن هؤلاء أيضًا يحبون آباءهم حبًّا شديدًا؛ ويقولون إذا وجدنا شهادةً من آبائنا على صدق القرآن فسوف نؤمن به

ولكنهم لا يؤمنون. فمثلاً عندما تُعرض على أهل الكتاب شهادات آبائهم المتمثلة في أنباء واردة في التوراة والإنجيل تُبشّرهم بمجيء نبيّ كمحمد ﷺ فإنهم لا يقبلونها. أو حينما قدِّمت لأهل مكة روايات عن أبيهم إبراهيم عليه السلام، عن بعث محمد ﷺ أنكروها أيضًا. أو أن المعنى: أنهم يقولون بأننا سوف نصدِّق القرآن إذا أخبَرَنا آباؤنا الموتى بصدقه في الكشوف والرؤى. وهذا يحدث في زمننا هذا أيضًا، حيث نجد البعض يصدقون سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام بناءً على الأدلة، ومع ذلك يتمنون أن يزورهم النبي في الرؤيا ليخبرهم بصدقه. وقد صدَّقه كثيرٌ من الناس بسبب هذه الرؤى والكشوف. ولكنّ هناك آلافًا آخرين زارهم النبي ﷺ أو بعض من أولياء الله الأسلاف في الرؤى والكشوف وشهدوا على صدق سيدنا الإمام المهدي، ومع ذلك ما زالوا مصرين على إنكاره. يبدو أن ظاهرة الكشوف والرؤى كانت سارية في زمن النبي ﷺ أيضًا، ولكن الناس كانوا لا يقبلون الحق رغم انكشافه عليهم في الرؤى، مثلما يحدث في أيامنا هذه أيضًا.

والثاني: قد يكون المراد منه تكليم الموتى الروحانيين بالقرآن الكريم أي أنّ القرآن لا يحييهم حياة روحانيّة فحسب، بل سوف يجعلهم يتكلمون أيضًا. بمعنى أنه سوف تفيض ألسنتهم بمعارف روحانية سامية بحيث يصبحون قادة وهداة للعالم. لقد أطلق القرآن في أماكن عديدة، اسم "الموتى" على المحرومين من الروحانية، وسمّى أهل الروحانية أحياءً كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٥). فالحرمان من الروحانية موت والحصول عليها حياة في مصطلح القرآن الكريم. ونظرًا إلى هذا المعنى فالمراد من تكليم الموتى أن القرآن سوف يجتذب حتى المحرومين روحانيًا إلى حظيرة الإسلام، فيحققون ارتقاءً مدهشًا في الروحانيّة بحيث يصبحون قادة للعالم في مجال الروحانيات. وهناك أمثلة كثيرة من فجر الإسلام تثبت صدق هذه الحقيقة. فسيدنا عمر رضي الله عنه كان من ألدّ أعداء الإسلام، خرج ذات يوم من بيته بقصد قتل النبي ﷺ، ولكنه أسلم على يده بدلاً من أن يقتله.

وانظروا كم كان رصيدَ عمر أضخَمَ وأكبَرَ في مجال التضحيات لنصرة الإسلام ونشره. ومنهم خالد بن الوليد ﷺ الذي كان في البداية يعادي الإسلام عداوة شرسة، ولكنه أيضًا لم يستطع مقاومة تعاليم القرآن، وأسدى خدمات جليلة في سبيل نصرة الإسلام. ومنهم عِكرمة ﷺ وكان ابنًا لعدوّ الإسلام أبي جهل، وقد كان بنفسه عدوًا لدودًا لدين الله، ولكنه أسلم في آخر المطاف وضحّى بحياته في سبيل الإسلام.

ثم يقول الله تعالى ﴿بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي أن زمام كل شيء بيد الله تعالى وسوف ترون كيف أن هذه الأنباء والوعود التي تبدو لكم مستحيلة سوف يحققها الله تعالى تصديقًا للقرآن الكريم.

أما قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فقد سبق أنْ بينت أنّ (لم ييأس) جاءت بمعنى (لم يعلم)، لتبين أن الله تعالى قادر على هدي الناس جميعًا، وأن طريق اهتداء هؤلاء هو أن يتعرّضوا للعذاب تلو عذاب من الله ويزحف عليهم جيش بعد جيش – مع العلم أن القارعة هنا بمعنى الجيش– حتى تداهمهم جنود المسلمين في عقر دارهم. وعندئذ سوف يتحقق وعد الله تعالى بأنه يهدي الناس جميعًا. وهذا ما حدث بالفعل، حيث تتابعت الاشتباكات وتوالت الحروب بين الكفار والمسلمين، وهلك فيها من هلك ممن تنبأ القرآن بحرمانهم من الهدى، إلى أن حلت جنود المسلمين بديار الكفار تقرع أبواب مكة وتم فتحها على يد الرسول ﷺ. وهكذا أنجز الله وعده بهدايتهم، فآمنوا جميعًا، بل أسلمت الجزيرة العربية كلها من أقصاها إلى أقصاها.

الله الله، ما أروعه من نبأ عظيم! انظروا كيف أن الله نَبَّأَ عن ازدهار الإسلام قبل زمن طويل، ثم يتحقق النبأ حرفيًا بحيث شكل برهانًا عظيمًا على صدق القرآن الكريم. ولكن المؤسف أن الذين قد عميت قلوبهم لا يزالون إلى زمننا هذا مصرين على الكفر بالقرآن، بل إن المنتمين إليه أيضًا لا ينتفعون بتعاليمه ومعارفه.

ثم قال ﴿إِنَّ اللّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ويتضح من ذلك أنه كان هناك وعد خاص قطعه الله على نفسه ﷻ وهو نفس الوعد الذي قد أشار إليه في موضع آخر من

القرآن الكريم بقوله ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص:٨٦). أي أننا لا بدّ أن نرجع بك مرة أخرى إلى مكة التي هي معاد -أي مرجع للناس- يقصدونها حاجّين مرة بعد أخرى.

إن هذه السورة (الرعد) مكيّة، وهذه الآية فيها تضمنت عدة أنباء تحققت بكل جلاء، وهي:

١) أن النبي ﷺ سوف يضطر للهجرة من مكة المكرمة.
٢) أنه سوف يرجع إليها بعد الهجرة.
٣) سوف تقع بينه وبين أعدائه حروب يشنها الكافرون.
٤) حتى إنه ﷺ سوف يحل بجنوده في عقر دارهم "مكة".
٥) وعندئذٍ يتحقق وعدُ الله تعالى بشكل كامل أي يتم فتح مكة المكرمة.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

استُهزِئَ: استهزأَ: هَزَأَ أي سَخِر منه (الأقرب)

أملَيتُ: أملى له في غَيِّه: أطالَ له. أملى البعيرَ: وسَّعَ له في قيده. وعبارةُ "الأساس": وأمليتُ القيدَ للبعير: أرخيتُه وأوسعته. (الأقرب)

أخَذتُهم: أخذه اللهُ: أهلَكَه. أخذَ فلانًا بذنبِه: عاقبه عليه. (الأقرب)

التفسير: كان الكفار يكرّرون مطالبتهم: لماذا لا يعجل الله بإنزال العذاب علينا؟ فردّ الله عليهم: إننا نريد هداية الناس لذلك لا بدّ من تأخير العذاب لإعطاء المهلة لمن

كان الهدى من نصيبه.

والآن يبيّن أن إعطاء المهلة ليس بدعًا ولا خاصًّا بمن يكفرونك أنت، بل لم تزل هذه سنتنا مع كافة الرسل الذين خلَوا من قبلك، إذ أمهلنا أعداءهم. فإذا كان هؤلاء يرَون أن إتاحة المهلة لمن يكذّب مدّعيَ النبوة دليل على افترائه وكذبه فلا مناص لهم من تكذيب رسل الله الصادقين. ألم يكن أهل مكة يؤمنون -على الأقل- بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكانوا على علم بما تعرض له إبراهيم عليه السلام من تعذيب واضطهاد على يد أعدائه الذين ألقوه في النار، ومع ذلك لم يتعجل الله بالبطش بهم، بل عاقبهم على مهل بعد فترة طويلة.

وقال في آخر الآية ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ليلفت الأنظار إلى أنه ليس مهمًا أن يعرف الإنسان سبب المهلة، وإنما عليه أن يرى ماذا كان مصير الأمم السابقة عندما بطش بهم الله. ألم يجعلهم عبرة لمن يعتبر؟ فلا وجه للاعتراض على ما يمنح الله للكفار من مهلة، لأن هذه المهلة لا تعود بأي ضرر على أنبيائه، بل هي ضرورية لتحقيق الغرض من بعثتهم إذ تتيح لخلق الله فرصًا للإيمان والاهتداء.

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

قائمٌ: قامَ عليه: خرجَ عليه وراقبه. وقامَ على غريمه: طالبه (الأقرب). قوله تعالى

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.. أي حافظٌ لها. (المفردات)

تُنبّئون: نبّأه الخبرَ وبالخبرِ: خبَّره. ويُقال: نبّأتُ زيدًا عمرًا مُنطلقًا: أي أعلمته (الأقرب)

التفسير: هناك محذوف بعد قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، والتقدير: كمن هو ليس بقائم. والشواهد على هذا الحذف كثيرة في اللغة العربية، حيث يحذفونه لفظًا ويقدرونه معنى. والمراد أن الله تعالى يراقب ويرى كل صغيرة وكبيرة من أعمال البشر، ويسجلها ويرتّب النتائج عليها، بحيث لا يمكن لأحد أن يفلت من المؤاخذة الإلهية على أعمالهم، فإنه تعالى قائم بكل شيء ويراقبه بحيث إن كل الأشياء في قبضته سبحانه وتعالى. فهل يمكن لمثل هذا الإله أن يتساوى بمن لا يملك شيئًا من هذه القوى والقدرات. وما دامت عنده هذه القدرة الهائلة فلماذا يتعجل في عذاب الناس؟ لأنه إنما يتعجل بالانتقام من لا يملك القدرة الكافية على عدوه، ويخاف أنه إذا لم ينتقم الآن فربما أنَّه ينفلت من يده فلا يتمكن منه. ولكن ما دام الله تعالى قادرًا على كلّ شيء وفي أي وقت فلماذا يتعجل الانتقام شأن الضعفاء في إنزال العقاب بالمجرمين؟ لذا عليكم يا أعداء محمد أن لا تستهزئوا أو تتعجبوا من تأخير العذاب عنكم، بل يجب أن تقوموا بمحاسبة أنفسكم وتفكروا ما إذا كنتم مجرمين في حق الله تعالى. فإذا كنتم مجرمين بالفعل فلا يليق بكم أن تضحكوا وتستهزئوا، غافلين عمّا أنتم فيه غير مكترثين بمآلكم.

وبيّن بقوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء﴾ أنهم لو تدبّروا في عقائدهم وأعمالهم لوجدوا أنهم قد ارتكبوا الجرائم في حقّ الله تعالى، إذ زعموا أن لله تعالى شركاء في ملكوته، مع أنه تعالى يقوم بنفسه وحدَه بتدبير كل أمر في ملكوته دونما حاجة إلى مساعدة من أحد، وإنهم يستوجبون العقاب على ذلك، فكيف يظنون أنهم بخير وفي مأمن من العذاب؟

ثم قال تعالى ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾. واعلم أنه من أسلوب القرآن أنه إذا تطرق الحديث

إلى مسألة هامة –ولو تطرقًا ضمنيًا– فإنه يُشبعها بحثًا وتفصيلاً. وهذا ما فعله القرآن هنا أيضًا حيث قال ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ﴾ شرحًا للموضوع الجاري وهو كون الله تعالى قائمًا ومراقبًا على كلّ نفس. ولَّما كان الشرك يمثل قضية دينية هامة لذلك رأى القرآن لزامًا أن يترك الموضوع الأصلي جانبًا لبعض الوقت ليبرهن على تفاهة هذه العقيدة وضحالتها وفسادها.

فقال دحضًا لمزاعم أهلها مشيرًا إلى شركائهم: ﴿سَمُّوهُمْ﴾. وليس المراد منه أنه إذا كان لله شركاء فدلّونا على أسمائهم، إذ كانوا قد أطلقوا على أصنامهم أسماء عديدة، كما قد ذكر القرآن بنفسه بعضًا من أسمائها، بل المراد: أخبِرونا بصفات شركائكم وأعمالهم. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في موضع آخر من القرآن بقوله ﴿إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ (النجم:٢٤). أي أن هذه الأصنام التي تعبدونها إن هي إلا أسماءٌ فقط، لا صفات لها ولا أعمال.

وهذا دليل قوي للغاية وقادر على أن يفحم أي مشرك، لأنه لو زعم مثلاً أن هذا الصنم يهب الأولاد، لاضطر للإيمان بوجود كل الصفات الإلهية فيه، لأن إنجاب الولد يقتضي صلاح رحم المرأة من جهة، ومن جهة أخرى قوة الحيوانات المنوِيّة عند الرجل. وهذا يتطلب أغذية نافعة وأدوية ناجعة، مما يدفعنا للاعتقاد بأن هذا الصنم يملك التصرف في إنتاج الأغذية وفي تأثيرها وتأثير الأدوية بل وفي المصانع المنتجة لها. ثم إن الأعشاب التي تصنع منها الأدوية خاضعة لتأثير الأجرام الفلكية والتقلبات الجوية، فلزم أن نؤمن أن هذا الصنم يتحكم في هذه الأجرام والظواهر أيضًا. كما سنضطر للقول بكونه عالِمَ الغيب، وإلا كيف عرف أن هذا هو الدواء الناجع المناسب لهذا المريض. كما لابد لنا أن نؤمن بكونه مُلْهِمًا حيث يلقي في بال الطبيب أو المريض أو زوجته فكرة تناول هذا الدواء الناجع، وهلمَّ جَرّا.

وبالاختصار فإن الصنم لن يقدر على فعل أي شيء بدون اتصافه بجميع هذه الصفات لا بصفة واحدة. وإذا آمنا بوجود جميع هذه المزايا فيه فقد اعترفنا بوجود

أكثر من إله واحد، ولاضطررنا للتسليم بأن آلافًا من الآلهة يديرون نظام الكون الذي يستطيع حتى واحد منهم فقط تدبيره! ومثل هذا العمل الخاطئ مرفوض حتى من الناس، دعك من أن يُنسب هذا العبث إلى الإله الحق.

سألت مرة أحد القساوسة: من الذي خلق الكون؟ قال: المسيح. قلت: هل كان الله قادرًا على خلق الكون؟ قال: نعم. قلت: فهل الله يجلس بدون عمل ولا يخلق؟ قال: لا، هو أيضًا يخلق مع المسيح. ثم وجهت إليه نفس الأسئلة عن روح القدس، فردّ بنفس الرد. فقلت له: لنفترض أن هناك قلمًا على تلك الطاولة، وتريد أن تأخذه، ولكنك تأمر خادمك أن يأتي به، فيذهب هو إلى الخارج ويصطحب شخصين آخرين، فيحمل الثلاثة إليك القلم، فما رأيك في هؤلاء يا ترى؟ قال: إنهم مجانين طبعًا. فقلت له: لَمَّا كان كل واحد من الأقانيم الثلاثة قادرًا بمفرده على خلق الكون فلماذا يقومون بخلقه جميعًا؟ فقال القسيس مبهوتًا: الواقع أن التثليث مسألة دقيقة يتعذر على العقل الإنساني استيعابها.

فكنتُ استخدمتُ ضده نفس هذا الدليل المذكور بقوله تعالى ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.

وقد يكون لقوله تعالى (سَمُّوهُمْ) معنىً آخر إذا اعتبرناه من قبيل قولنا لأحد تحقيرًا للشيء: (سمِّه) بمعنى أن لا حقيقة لهذا الشيء، إذ يبلغ من الدناءة والحقارة بحيث يجب أن يخجل أحد من ذكره أمام الناس. فالمراد من قوله (سَمُّوهُمْ) أي سمّوا هذه الأشياء الحقيرة والدنية فسوف ترون كيف يصيبكم الذل والهوان.

وساق القرآن دليلاً آخر على بطلان الشرك بقوله تعالى ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ أي لو كان لله تعالى شريك لأخبرَنا الله بنفسه عنه. فمثلاً حين تُوَلّي الدولةُ أحدًا ليكون حاكمًا على محافظة أو منطقة فهي التي تعلن عن تعيينه وليس سكان المنطقة بأنفسهم. كذلك يقول الله تعالى: لو أنني كنت أنا الذي اتخذت شركاء في ملكوتي لباشرت بنفسي الإعلان عنهم على لسان أحد الرسل، أو أنزلت الملائكة يعلنون عن ذلك، أو أنَّ هؤلاء الشركاء أنفسهم على الأقل يخبرون

الناس بأن الله قد اختارهم شركاء له سبحانه وتعالى. ولكن لم يحدث أي شيء من هذه الأمور الثلاثة، ولذلك قال الله تعالى ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾.

أما قوله تعالى ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ فيعني أنكم لا تقولون ما تقولون إلا بأفواهكم، بينما قلوبكم منكرة له وغير مقتنعة به، لأن القلوب إنما تقتنع بما يقوم عليه برهان ودليل. وكأن قوله تعالى ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ يمثل سؤالاً من فطرتهم الراقدة النائمة، لأن السؤال من الفطرة السليمة يكون وسيلة ناجحة للإقناع في بعض الأحيان.

أو أنَّ المعنى: أم تقولون هذا بناءً على دليل ظاهر.. أي هل عندك من دليل معقول يستند إلى كلام وحي سماوي مما نزل في كتب الأوّلين. فكيف إذًا تستسيغون اتخاذ شركاء من دون الله سبحانه وتعالى.

وباختصار، فقد أشار بقوله تعالى ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ إلى انعدام أي دليل عقلاني، ولا شهادة إلهية على وجود الشركاء. وأشار بقوله ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ إلى انعدام أي دليل يستند إلى الكتب السابقة أو الفطرة الإنسانية على صحة عقيدة الشرك.

وأما قوله تعالى ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾، فاعلم أن فاعل (زُيّن) هو نفوسهم، وليس الله تعالى، والمعنى أن الإنسان عندما يعتاد خداع الآخرين يصبح هو وأولاده بالتدريج فريسةً للتأثيرات الهدّامة لمكره وخداعه. فمثل هؤلاء المخادعين يختلقون العقائد الوثنية خداعًا للناس ليستولوا على أموالهم باسم هذه الأوثان، ولكن بمرور الوقت يستحسنون بأنفسهم الأصنام تدريجيًا، أما أولادهم فيقعون فريسةً لهذه الأوهام كلية.

وأضاف قائلا: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي أنهم عندما يقطعون صلتهم بالله تعالى يبدءون في اتخاذ شركاء له. ذلك أن الإنسان لا يستطيع في الواقع العيشَ بدون صديق ومعين، ولذلك عندما يبتعد عن الله تعالى يبحث عن السند والملاذ في أشياء أخرى.

وهكذا ينشأ الإشراك بالله تعالى.

وهناك اختلاف في هذه المسألة بين القرآن الكريم وبين علماء مقارنة الأديان الغربيين. فالقرآن يؤكد على أن عقيدة التوحيد أسبق زمنًا من الشرك، ولكن هؤلاء يقولون بأن الناس كانوا مشركين في بداية الأمر، ثم بدءوا يفكّرون في وجود إله واحد، فنشأت نظرية التوحيد الإلهي (موسوعة الأديان، كلمة Polytheism). ولكن التاريخ والواقع الحاضر يشهدان على صدق موقف القرآن الكريم. لقد كان اليهود والمسلمون موحدين في بداية الأمر، حتى إن المستشرقين أيضًا يعترفون بأن الرسول ﷺ علّم التوحيد الكامل، ولكن انظروا كيف صار اليهود والمسلمون بمرور الزمن مشركين وثنيين عمليًا. وهذا ما حدث بالناس في البداية. كانوا موحدين ثم صاروا مشركين. وهذا ما يؤكده القرآن الكريم هنا بأنهم عندما قطعوا صلتهم بالخالق أخذوا يبحثون عن الملاذ في المخلوقات، وهكذا تسرب فيهم داء الشرك.

وأما قوله تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فاعلم أن (أضلَّ) لها ثلاثة معانٍ: أغوى أحدًا، أو اعتبره غويًا، أو أهلكه. وبما أن الله تعالى لا يغوي أحدًا، بل يهدي كما قال في هذه السورة نفسها: ﴿لَوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فلا يمكن أن نأخذ قوله ﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ﴾ بمعنى الإغواء، بل المراد أن من اعتبره الله غويًا أو من أهلكه الله فلا أحد يستطيع أن يهديه. والله تعالى عالم للغيب مطلع على بواطن الناس وسرائرهم فلذلك لا يمكن أن يعتبر أحدًا ظالمًا ما لم يكن قد سدَّ هذا في وجهه طرق الهداية كلها. ويتأكد هذا المعنى بآية أخرى حيث قال الله تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ﴾ أي أنه تعالى لا يعد أحدًا ظالمًا إلا أن يكون من أهل السوء والعصيان.

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ

مِن وَاقٍ ﴿٣٥﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

أشَقُّ: شقَّ الشيءَ: صدَعه وفرّقه. شقَّ عليه الأمرُ شقًّا: صَعُبَ. شقَّ على فلانٍ: أوقعه في المشقّة (الأقرب)

مَثل: المثلُ: الشِبْهُ والنظيرُ؛ الصفةُ؛ الحُجّةُ؛ يُقالُ: أقامَ له مثلاً أي حجةً؛ الحديثُ؛ القولُ السائر؛ الآيةُ. (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنه ستكون هناك أنهار جارية خلال بساتين الجنة. وفي هذا إشارة إلى توفُّر الماء على مقربة منهم، وإلى أن الأنهار سوف تكون ملكًا لهم.

واعلم أن "النهر" هو الماء الجاري في سهولة ويسر، وهكذا فكلمة (الأَنْهَارُ) تشير إلى أن أهل الجنة سوف يحققون الترقيات الروحانية بسرعة دون أي عائق.

كما أن كلمة "النهر" تدلّ على الكثرة والسعة، لأن النهر أو القناة لا يحفر ولا يشق من أجل عشرة أو عشرين فدانًا مثلاً، بل من أجل أراضٍ شاسعة. وفي هذا إشارة إلى أن أعمال المؤمن تكون كثيرة ومتنوعة، وأنه لا يكون ضيق الآفاق وقليل المعلومات كضفدع يعيش في ماء البئر، ويرى أن البئر هي الكون كله.

ثم باستخدام صيغة الجمع (الأَنْهَارُ) أشار إلى أن المنافع والنعم المشار إليها بكلمة (الأَنْهَارُ) ستكون أقسامًا وألوانًا.

وكلمة النهر تعني العمل في اللغة الروحانية، فالمعنى أن أعمال المؤمن المتنوعة

الكثيرة ستتمثل له يوم القيامة على شكل أنهار كثيرة، وسيكون له نهر جارٍ إزاء كل عمل صالح تذكيرًا له أن هذا النهر جزاؤك على عمل كذا وكذا.

وبيّن بقوله ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا﴾ أن الخريف لن يهاجم بساتين الجنة أبدًا، بل ستظل مخضرةً نضرةً على الدوام. بمعنى أنه لن يتخلل نعيم أهل الجنة وراحتهم أي انقطاع أبدًا بل إنهم سينعمون بها إلى الأبد.

كما أشار بقوله ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ إلى دوام النعم بنوعيها الظاهري والباطني، لأن ثمار الشجرة تنعش باطن الإنسان وأما ظلّها فيريح ظاهر جسمه.

ووضّح بقوله تعالى ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أنهم لم يهتموا في الدنيا برقيهم الروحاني وإنما اتبعوا الآخرين دونما تبصّر ووعي وقالوا:﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.. وكأنهم لم يعيشوا لأنفسهم وإنما لغيرهم. وهذا ما يُفعل بهم في الآخرة أيضًا حيث يُلقَون في النار التي لا ينفعها احتراقها شيئًا، وإنما ينتفع بها الآخرون.

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

الأحزابُ: جمعُ الحزبِ وهو: الطائفةُ؛ جماعةُ الناس؛ جُندُ الرجلِ وأصحابُه الذين على رأيه؛ النصيبُ؛ كلُّ قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وإن لم يلقَ بعضُهم بعضًا. (الأقرب)

التفسير: تؤكد هذه الآية على أن بعض أهل الكتاب كانوا قد آمنوا بالرسول ﷺ

خلال الفترة المكية أيضًا. وأرى أن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ﴾ إشارة إلى النجاشي ملك الحبشة وأصحابه الذين آمنوا عند هجرة بعض المسلمين إلى بلده. فحينما قرأ عليه جعفر الطيّار ﷺ آيات من القرآن الكريم قال: هذا ما أؤمن به أنا أيضًا. وبما أن إيمانه لم يكن قد انكشف بعد تمامًا، ولكنه كان هو وأصحابه يفرحون برؤية رقي المؤمنين الآخرين، لذا وصَفهم الله بقوله: (يفرحون بما أنزل إليك) و لم يقل بأنهم يؤمنون بهذا الكتاب.

وقد يكون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى المسلمين أنفسهم حيث كانوا يفرحون بأنباء تبشّرهم بانتصار الإسلام وبعاقبتهم المحمودة.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ فاعلم أن المراد من (الأَحْزَاب) هو جميع الأمم التي يخاطبها النبي ولكنها لا تؤمن به. غير أن المراد من الأحزاب هنا اليهود والنصارى والمشركون وغيرهم من الملل. وقد جاء الإنكار هنا بمعنى الرفض أو الاستغراب. وقد قال القرآن الكريم (بَعْضَهُ) لأنهم كانوا يفرحون بما يتفق من القرآن مع عقائدهم ونظرياتهم، ولكنهم كانوا ينكرون منه ما كان مخالفًا لعقائدهم وأفكارهم.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ فقد وضّح به أن التوحيد هو خلاصة تعاليم كل نبي من الأنبياء السابقين، وهو المحور لتعاليمي أنا أيضًا، فكيف يمكن إذن أن أنحرف عن التوحيد؟

كما أن هذه الجملة تمثل ردًّا من النبي ﷺ على مطالبة الكفار بإحداث تغيير في القرآن المشار إليها في قوله (مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ)، حيث قال لهم: لستُ إلا مطيعًا للأوامر الإلهية، ولا أقول لكم إلا ما أؤمر به من الله تعالى. فلو غيَّرتُ القرآن من عند نفسي فكأنما ادعيتُ بكوني إلهًا. ولست لأفعل ذلك، لأنني مأمور أن أطيع الله وأعبده وحده.

ثم قال ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ أي أنني لم أزل أعلن منذ البداية أنني لست إلا داعيًا إلى الله،

فكيف يمكن إذن أن أغير القرآن إرضاءً لكم.

وبيّن بقوله ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أنه لما كانت معاملتي ليست إلا مع الله تعالى، وما دام مصيري ليس إلا إليه جلّ وعلا، فكيف أتجاسر على مخالفة أوامره؟ فلا يهمني رضاكم أو سخطكم، فإيمانكم لن ينفع إلا أنفسكم ورفضكم لن يضرني شيئًا، فمن المستحيل أن أبدل كلام الله بغية رضاكم.

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

عربيًّا: أعرَبَ الشيءَ: أبانه وأوضحهُ. أعربَ عن حاجته: أبان عنها. أعربَ كلامَه: حسَّنه وأفصَحَ ولم يلحَن في الإعراب. أعربَ بحجّته: أفصحَ بها (الأقرب) الإعرابُ: البيانُ (المفردات) (راجع أيضًا شرح الكلمات للآية ٤ من سورة يوسف).

أهواء: جمعُ هوىً. والهوى: إرادةُ النفس؛ ويُقالُ فلانٌ اتبعَ هواه.. إذا أُريدَ ذمُّه (الأقرب)

التفسير: إن وصف القرآن بكونه (عَرَبِيًّا) لا يعني نزوله باللغة العربية فقط، إذ لا خصوصية للقرآن في ذلك لأن كل عربي يتحدث بها، إنما جاء هذا الوصف إشارة إلى ما تحتوي عليه كلمات القرآن من مفاهيم واسعة للغاية بحيث لا يقدر على الإتيان بها إلا الله جلّ شأنه، وأن أدنى تغيير فيها يَحُطُّ من عظمة القرآن وشأنه.

يقال إنَّ أحد الأثرياء قال لأحد الأدباء أن يؤلف كتابًا ينافس به القرآن الكريم، فقال الأديب: هذا يتطلب راحة البال والوقت الكثير والبساتين الفيحاء الغنّاء، وقصرًا

به الخدم والمرافق كلها. فأمر له الثري بتوفير التسهيلات كلها، وضرب له مدة ستة أشهر بحسب رغبته. فبدأ يقضي الأيام في عيش هنِيّ وطعام شهيّ وزيّ جميل ونزهة ممتعة. وبعد انقضاء المدة المضروبة سأله الثري: أَرِني ماذا أعددت إلى الآن؟ فقدّم إليه كومة من الأوراق قائلاً: لم أجلس في هذه المدة عاطلاً، بل ما زلت عاكفًا على العمل بكل أمانة، وهذه الأوراق شهادة على صدق ما أقول. ولكني عاجز عن تأليف كتاب مثل القرآن لأنني كلما أمرّ بآية من آياته أجدها تبشر محمدًا ﷺ: سوف نهلك أعداءك وسنكتب الغلبة لأتباعك، فكيف أقطع في كتابي هذه الوعود لأحد، وكيف أفعل ذلك وأنا أعيش على ما تجود به أنت عليَّ. فلا تتوقع مني أن آتي بمثل القرآن.

هذا هو المراد من كون القرآن عربيًا، إذ يحتوي على معان واسعة ومعارف سامية ونبوءات عظيمة تفوق قدرة البشر.

والخطاب في قوله تعالى ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم...﴾ قد يكون موجهًا إلى كل إنسان، أو إلى الرسول ﷺ. وإذا كان الخطاب موجّهًا إليه ﷺ فقد جاء الله به تأكيدًا لعظمته وجبروته جلّ وعلا. والمراد أنك لست بشيء في حد ذاتك، بل إنك كالناي الذي يُطلق ألحانًا جميلة لأن ملك السماء والأرض ينفخ فيه، ولو أنه ترك النفخ فيه عاد إلى سيرته الأصلية وصار قطعة خشب لا غير.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

إِذْن: الإذنُ: الإجازةُ؛ الإرادةُ؛ العلمُ (الأقرب)

أَجَل: الأجلُ: مدةُ الشيء والوقتُ الذي يحلُّ فيه (الأقرب)

كتاب: الكتابُ: الحكمُ؛ الفرضُ؛ القدرُ (الأقرب)

التفسير: هذه الآية تعيد نفس الموضوع الذي نوقش في بضع آيات سابقة (من الآية ٣٣ إلى ٣٧)، وهو أننا قد بعثنا الرسول في نفس الظروف التي بعثنا فيها الرسل من قبل. لقد كان الكفار يعترضون على النبي ﷺ بقولهم: كيف يمكن أن يُبعث هذا رسولاً وهو قليل الحيلة وعديم الوسائل؟ فردّ الله عليهم:بأننا لم نرسل الرسل من قبل إلا وكانوا لا يملكون الوسائل والأسباب، كما كانوا معرَّضين لكل ما يحتاج إليه الإنسان من ضروريات وحاجات من أهل وأولاد، وكانوا يكدحون للإنفاق عليهم ويسهرون على رعايتهم، ولكنهم رغم لزوم الحاجات البشرية وفقدان أسباب الانتصار نجحوا في أهدافهم.

وقد ذكر زوجاتهم وأولادهم خاصةً لأن الذي ليس عنده زوجة وأولاد يمكن أن يستعد للتضحية بالحياة بشجاعة أكبر، ولكن صاحب الأهل سيتردد كثيرًا في التضحية بالحياة ويعمل ألف حساب قبل الإقدام عليها. وكأن العقبات التي يواجهها الأنبياء في سبيل الله تعالى تكون مضاعفة، إذ يكونون عديمي الحيلة قليلي الأسباب، ومعهم الأهل والأولاد الذين يمثلون عائقًا آخر في سبيلهم، ومع ذلك ينجحون في أهدافهم. كذلك سيحدث الآن أيضًا وسيكون النجاح حليف محمد ﷺ.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلا بِإِذْنِ اللّهِ﴾ فقد وضّح به أننا نحن الذين كتبنا لهم الغلبة وأظهرنا هذه الآية العظيمة تصديقًا لهم، ولكن هذا لا يعني أننا أظهرنا لهم الآيات بحسب رغبة المعارضين، كلا بل أريناهم من الآيات ما وجدناه ملائمًا ومناسبًا. مع العلم أن القرآن الكريم كلما ذكر مطالبة الكفار بالآية عنى به العذاب دائمًا، إلا أن تكون هناك قرينة صارفة عن هذا المعنى. وهنا أيضًا جاءت الآية بمعنى العذاب.

هنا سؤال يطرح نفسه: إذا كان الله تعالى يبعث الرسل لإصلاح الناس فلماذا لا يفوّض إليهم أمرَ عقاب العُصاة أيضًا، حتى لا يتجاسروا على معارضة الحق، شأن

الحكومات التي تمنح موظفيها السلطة لإنزال العقاب بالمجرمين إلى حدٍ ما. فقال الله ردًا على هذا السؤال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.. أي أن الله تعالى لا يرتب الجزاء على الأعمال الإنسانية فحسب، بل أيضًا يراعي ما هو الجزاء المناسب في وقت معين، لصاحب العمل ولغيره. ولو أنه فوَّض أمر العقاب إلى الأنبياء –وهم لا يعرفون الغيب– فقد يخطئون في إنزال العقوبة بالناس فور مطالبتهم بالعذاب، وهكذا يبطلون الحكمة من وراء بعثتهم.

هذا هو الفرق بين الحكومات الدنيوية وحكومة السماء. فالحكام الدنيويون يحددون عقوبة جريمة من الجرائم وينفذونها، ولكن الله لا يحدد عقوبة الجريمة فحسب، بل ويختار العقوبة المناسبة لكل موقف معين لأن إنزال العقوبة المناسبة في الموعد المناسب يلعب دورًا هامًا في تأثيرها ونتائجها. فالقرار الأفضل الذي لا عيب فيه هو أن لا تحدّد عقوبة جريمة ما فحسب، بل يجب أيضًا أن يحدَّد العقاب وموعد تنفيذه بحكمة.

لقد أخطأ المفسرون في فهم هذه الآية وقالوا بأن فيها تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير عندهم هو: "لكل كتاب أجلٌ". والحق أنه لا حاجة بنا لأي تقديم أو تأخير، وإنما الترتيب الصحيح هو كما ذكره القرآن بنفسه، والمعنى أن عند الله قرارًا خاصًا لكل موعد ووقت. وهكذا بيّن معنىً لطيفًا جديدًا ذكرتُه فيما سبق، وهو أن الله تعالى لا يمنح الأنبياء خيار العقاب لأنهم لا يعلمون الغيب، ولا يعرفون ما هو القرار المناسب في الموعد المعيّن، هل يكون العفو أم يكون العقاب أم أنَّ تأخير العقاب هو الأنسب. والآية المقبلة تؤكد هذا المعنى.

يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

يمحو: محا الشيءُ: زال وذهب أثرُه. محا فلانٌ الشيءَ: أزاله وأذهب أثره (الأقرب).

يُثبت: أَثْبَتَهُ: عرفه حق المعرفة؛ حبَسَه وجعله ثابتًا في مكانه لا يفارقه. أثبت الحقَّ: أكَّده. أثبت اسمه في الديوان: كتبه (الأقرب).

أُمّ: الأُمّ: الوالدة. وأُمُّ الشيء: أصلُه. أُمُّ الطريق: معظمه (الأقرب).

التفسير: إن الله لا يعذب قومًا قبل حلول الموعد المناسب فحسب، بل وقد يلغي العذاب لحكمة وإن حل موعده. إذ بيّن هنا نوعين من سنته عن العذاب: أولهما: ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء﴾ أي أن من أنباء العذاب ما يمحوه الله نهائيًا، وثانيهما: (وَيُثْبِتُ) أي أنه يُبقي نبأ الوعيد كما هو. ولكنه لا يعذِّب قومًا دونما ذنب، كما لا يزيد عما استوجبوه، وإن كان من الممكن أن يعذبهم أقل مما استوجبوه.

وعلى كل من أراد التخلق بأخلاق الله أن يضع هذا القانون في الحسبان دائمًا. فالذين يريدون أن يسحقوا العدو عند الغضب، أو لا يريدون أن يعفوا عمن أساء إليهم.. فليعلموا أن سلوكهم منافٍ للصفات الإلهية، ولا يمكن أن يسمَّوا مسلمين صادقين.

أما قوله تعالى ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فاعلم أن أُم الشيء يعني أصله وحقيقته. ونظرًا إلى هذا المعنى فيمكن أن تفسَّر الجملة كالآتي:

الأول: إن الله تعالى هو الأعلم بحكمة الأحكام الشرعية، لذا لا يمكن أن يهتدي الناس إلى الطريق السليم إلا بهديه. ذلك أن الإنسان خاضع لأهوائه النفسية وأطماعه الشخصية، لدرجة أنه لا يستطيع أبدًا أن يتسامى عنها حتى يهتم بحاجات العالم كله. فلذا كل ما يقترحه من تعاليم وأحكام لا بدَّ أن تكون مشوبة بشوائب أهوائه وأطماعه. ولكن الله عالم بحاجات العالم كله، كما أنه عليم بما يخفيه المستقبل، لذلك فإن أحكامه كاملة وهدايته صحيحة سليمة من النقائص.

والمعنى الثاني هو أن جميع أحكام الشرع تدور حول صفات الله تعالى لأنها نابعة من هذه الصفات الإلهية، وهكذا يُصبح أصل الشريعة عند الله تعالى. وقد أشار بهذا إشارةً لطيفةً إلى أنه ليس بمقدور أحد أن يتحلى بالأخلاق العالية الفاضلة الحقيقية ما لم يكن سلوكه تابعًا للصفات الإلهية بشكل كامل. فمن أراد تقييم الأخلاق -خيرها وشرها- على ضوء الأعمال الإنسانية فقط فقد أخطأ. لأن الخير في الواقع ما يكون موافقًا للصفات الإلهية، والشر هو ما يكون مخالفًا لها. وهذا التعريف للأعمال يحل المشاكل التي يواجهها الفلاسفة في تعريف الخير والشر.

والمعنى الثالث هو أنه ما دام الله تعالى هو العليم بحكمة الشرع فيجب أن يكون خيار العقوبة أيضًا في يده هو سبحانه وتعالى. إذ نجد أن البعض يعادون الحق في البداية عداءً شديدًا، ولكنهم يقبلونه فيما بعد. ومثال ذلك في تاريخ الإسلام هو عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضوان الله عليهم. فالله وحده كان يعلم أن هؤلاء يستحقون النجاة من العذاب، رغم عدائهم، وأنهم سيوفَّقون في يوم من الأيام لخدمات جليلة للإسلام.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

نتوفّينّك: (انظر شرح الكلمات للآية ٤٧ من سورة يونس).

بعض: بعضُ كل شيءٍ: طائفةٌ منه؛ وقيل جزءٌ منه، ويجوز كونُه أعظمَ من بقيته كالثمانية من العشرة (الأقرب).

التفسير: أي يا محمد، ما دام عقابنا يهدف إلى الإصلاح لا إلى الانتقام، فلا داعي

للعجب إذا ألغينا بعض أنباء العذاب. فقد تشاهد بعض أنباء الوعيد يتحقق، بينما تجد بعضها الآخر يلغى، وليس في هذا ما يدعو إلى القلق، لأن الحساب النهائي في يد الله تعالى، وأن المعترضين على الأنباء التي تم إلغاؤها سوف يضطرون للمثول أمامه ﷻ، وعندئذٍ سوف تنكشف عليهم الحقيقة تمامًا. إذن فيجب أن تُخضع يا محمد، كلَّ أمر بحيث يحقق هذا الهدف الأسمى وهو البلاغ، وبأن لا تؤثر الانتقام والعقاب في كل حال، غاضًا النظر عن الغاية الحقيقية.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

نأتي: أتاه: جاءه. أتى الأمرَ: فعله. أتى المكانَ: حضره. أتى على الشيء: أنفده وبلغَ آخرَه. أتى عليه الدهر: أهلكه (الأقرب).

أطرافها: جمعُ طَرَفٍ وطَرْفٍ. والطرَفُ: حرفُ الشيءِ ونهايته؛ الناحيةُ؛ طائفةٌ من الشيء؛ الرجلُ الكريمُ. والطرْفُ: الكريمُ من الفتيان والرجال. الأطرافُ من الناسِ: خلافُ الرؤوس. الأطراف من الأرض: أشرافها وعلماؤها، هو من أطراف العرب.. أي من أشرافها وأهل بيوتاتها (الأقرب).

لا معقِّبَ لحُكمه: أي لا رادَّ له ولا ناقضَ له (الأقرب).

التفسير: لقد دأب الكُتّاب المسيحيون على قولهم بأنه ليس في القرآن ما يؤكد أن محمدًا قد أتى بأية آية وإنما اكتفى بادعائه بأنه سيأتي بها.(تفسير ويري ج١، ص٣٣٣). ولكن هذه الآية تشكل ردًّا حاسمًا على زعمهم الخاطئ حيث يعلن الله

فيها بأننا قد نريهم الآيات، ولكنهم لا يبصرونها إذ قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، بمعنى أن آثار انتصار الإسلام بدأت تلوح في الأفق طبقًا لنبوءات الكتب السالفة، وقد شرع الإسلام يغزو بيوت الكفار حيث إن أولادهم بدءوا ينضمون إلى جماعة المسلمين، ويسلم العبيد وعامة الناس، بل وعدد لا بأس به من علية القوم. فترى المؤمنين يشكّلون جميع طبقات المجتمع.

و"الأرض" هنا قد تعني الجزيرة العربية، والمعنى أن رسالة الإسلام تكتسب انتشارًا متزايدًا في مختلف أنحاء الجزيرة. فقد أسلم أهل اليمن، والثابت تاريخيًا أن بعضهم كانوا من اليهود والنصارى. كما آمن الغِفاريون الذين كان منهم أبو ذر الغفاري، وأسلم أهل المدينة المنورة.

كما أن قوله تعالى ﴿نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قد يكون إشارة إلى هلاك الكفار وفنائهم، لأن القرآن الكريم قد استخدم كلمة الإتيان بمعنى العقاب والهلاك، إذ قال:﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (الحشر:٣). أي أنزل الله بهم العقاب بطرق لم يتصوروها. فمعنى الآية إذن أن كبارهم وعامتهم يتعرضون لصنوف العذاب، أو أن شتى أنحاء الجزيرة العربية عرضة لأنواع العذاب مما يكفي ليدرك به الكفار أن الله تعالى يُري آياته تأييدًا للإسلام وتمهيدًا لانتصاره.

والمراد من قوله تعالى:﴿وَاللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أنكم ما دمتم ترون أن الله تعالى يؤيد وينصر رسوله، فكيف تظنون أن أحدًا يستطيع الحيلولة دون انتصاره. هل من أحد يقدر على إلغاء حكم الله تعالى.

وفي هذا درسٌ للمؤمن بأن عليه أن لا ينفك في طاعة أوامر الله تعالى غير مكترثٍ ولا قَلِقٍ لمكائد الأعداء.

وأما قوله تعالى﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فليس المراد منه أنه تعالى يتعجل في محاسبة الناس، وإنما المعنى أنه لا يستعجل بالعذاب، ولكنه إذا قرر إهلاك قوم فلا يستغرق ذلك زمنًا ولا يستطيع أحد الحيلولة دون تنفيذ قراره.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

مَكَرَ: مَكَرَهُ: خَدَعَه. مكر اللهُ فلانًا: جازاه على المكر. قيل: المكرُ صرفُ الإنسان عن مقصِدِهِ بحيلةٍ، وهو نوعان: محمودٌ يُقصد فيه الخيرُ، ومذمومٌ يُقصد فيه الشرُّ (الأقرب).

تَكْسِب: كسب الشيءَ: جمعه. وكسب مالاً وعلمًا: طَلَبَه وربحه. كسب الإثمَ: تحمّله. كسب لأهله: طلب المعيشةَ (الأقرب).

التفسير: أي كيف يمكن أن تنجحوا في مكائدكم مع أنه تعالى على علم بكل مكر تمكرونه. فلا بدّ أن يحبط خططكم أنتم جميعًا، شأن البصير الذي يكفي وحده لضرب جماعة من العميان.

وأما قوله تعالى ﴿سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ فيعني به أننا نحيط علمًا بكل ما ينسجه الكفار من مكائد، ولكنهم لا علم لهم بالتدابير التي نتّخذها ضدهم، وعندما نصيبهم بالخسائر سيدركون من الذي يملك زمام أمرهم ومصيرهم.

والسين في قوله تعالى ﴿سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾ للتأكيد والتقريب، فالمراد من الجملة أنهم سيعرفون حتمًا أن المسلمين هم المنتصرون في آخر المطاف. كما أنَّ فيها إشارة إلى أن رءوس الكفر لن يموتوا إلا بعد أن يروا انتصار النبي ﷺ وازدهاره.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

التفسير: إن أعداء أي نبي يرفضون كل دليل يسمعونه منه، ويسعون للتشكيك حتى في أعظم البراهين وضوحًا وجلاءً، وهذا في حد ذاته يُشكِّل دليلاً على صدق النبي وعلى فساد عقول الكفار وسوء نيتهم. وإذا فسدت عقول العلماء في أمة لدرجة أنهم لا يستطيعون فهم أبسط الأمور وأوضحها فما بال العوام؟ وهذا دليل على أنهم بحاجة إلى هادٍ من عند الله، إذ لو لم يُبعث نبي في مثل ذلك العصر الحالك فما هو الوقت الأنسب لبعثته يا تُرى؟ إلى هذا المعنى يشير الله تعالى هنا موضحًا لرسوله أن الأعداء سوف يقابلونك بالرفض وإن رأوا كل آية وسمعوا كل دليل. فلا تتضايق من جهلهم هذا، بل قل لهم: إن ربي يؤكد صدقي بآياته المتجددة، فلن يضرني إنكاركم شيئًا. كما ويشهد على صدقي مَن عنده العلم الصحيح بالكتب السماوية، فما قيمة إنكاركم إزاء هاتين الشهادتين العظيمتين؟ والحق أن هاتين الشهادتين تتسببان في انتصار الأنبياء.. أعني الآيات السماوية المتجددة، والأنباء التي وردت في كتب الأنبياء الأولين، وليس هناك شهادة هي أقوى منهما، وإن التركيز عليهما اليوم أيضًا يجعل الإسلام غالبًا منتصرًا مرة أخرى، إن شاء الله تعالى.